تطور المجتمعات المتأخرة

تأليف

الدكتور عبد العزيز عزت
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة ١٩٤٧

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

للمؤلف الكتب المطبوعة الآتية :

(١) مسكويه ، فلسفته الأخلاقية ومصادرها (كتابان فى مجلد واحد)

١ — مسكويه : زمانه ، حياته ، مؤلفاته ، المصادر عنه

٢ — فلسفته الأخلاقية ومصادرها

(٢) **Ibn-Khaldoun et sa Science Sociale**

(٣) **Trois Recherches Philosophiques**

(٤) السلطة فى المجتمع

(٥) فى الإحصاء

(٦) بحثان : (١) الثقافة المصرية فى عهد الفاروق المعظم

(٢) البعثة العلمية فى عهد إسماعيل العظيم

(٧) تطور المجتمعات المتأخرة

تحت الطبع

(٨) دراسات اجتماعية وأدبية (بعضها سبق نشره)

(٩) تطور الحركة الدولية

(١٠) تطور التفكير الاجتماعى

(١١) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية

تطور المجتمعات المتأخرة

تأليف

الدكتور عبد العزيز عزت
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

القاهرة ١٩٤٧

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

الإهداء

إلى روح إبراهيم الفاتح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا أول بحث ينشر باللغة العربية عن هذه الشعوب التي يحلو لبعض البحاث أن يسميها « متوحشة » وللبعض الآخر « بدائية » ولكننا آثرنا نعتها « بالمتأخرة » وذلك لأن كلمة متوحشة توهم أن هذه الأقوام تنعدم عندها الحضارة مع أن لها حضارة معينة ونحن نفهم الحضارة هنا فهما علمياً على طريقة شيخ المدرسة الاجتماعية الفرنسية العلامة دوركيم Durkheim لا فهما فلسفيا على طريقة فلاسفة القرن التاسع عشر وخاصة أوجست كنت Auguste Comte ، بمعنى أنها ليست التقدم والرقى Progrès وإنما فقط «مستوى معين للمعيشة الروحية والمادية يسود بين الناس» ، وهم حسب هذا التعريف لهم لون محدود من الحياة الدينية وسبل التنظيم الاجتماعي كالعادات والعرف والتقاليد ، ووسائل التنفيذ العملية كالآلات فى مختلف أشكالها . ثم أن كلمة « متوحشة » تدل على أنهم أكلة لحوم البشر ، وهذا غير صحيح بالنسبة لهم أجمعين نعم إن بعضهم يفعل ذلك ولكن هذه قلة غير منتشرة .

أما كلمة « بدائية » فتلقى فى روع الانسان أن هذه الأقوام تعيش كلها فى مستوى حضارى واحد كما توهم ذلك هربرت سبنسر Herbert Spencer مع أن هناك فوارق واضحة فى هذا المستوى فبعضها أرقى من البعض الآخر رغم أنهم كلهم يشتركون فى نوع حضارة واحدة ، فالزنوج القصار فى أواسط

أفريقا مثلا أحط فى مستوى معيشتهم وفى آلالائهم من الزنوج الطوال وهكذا ، ولهذا فضلنا استعمال كلمة « متأخرة » فهى من جهة تشملهم كلهم بمختلف فوارق حضارتهم ، ومن جهة أخرى تقارنهم بمن سبقهم فى التمدن والرقى ، وهى فى هذه المقارنة لا تقفل الباب أمامهم فى مضمار الحضارة ، فالمتأخر يصح أن يتقدم ، والمتقدم يصح أن يتأخر ، فصفة التأخر ليست « أزلية أبدية » وإنما هى نسبية الجهود الذى يبذل لرفع مستوى المعيشة الروحى والمادى ، ولقد اثبتت أبحاث علماء الاجتماع المحدثين أن هؤلاء المتأخرين ليسوا من « التوحش والبداوة » بحيث لا سبيل إلى تحضرهم ورقيهم فلقد أظهر أفراد منهم ربوا تحت سماء الحضارة الغربية الحديثة فى أوروبا وأمريكا مقدرة فائقة ونبوغا ملحوظا ، ولهذا يجب ألا ينظر إلى هذه الأقوام نظرة عنصرية بأنهم أجناس فرض عليها الانحطاط وتأصل فيها « التوحش والبداوة » وإنما نظرة أن الظروف الطبيعية والبيئة الجغرافية هى التى جعلتهم فى عزلة وسببت تأخرهم الاجتماعى ، حتى إذا ما تغيرت هذه الظروف أمكنهم أن يبلغوا مثلا ما بلغه زنوج أمريكا الشمالية من رقى وحضارة .

والذى دعانى أن أقوم بوضع هذا البحث هو ما كتبه عنه رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية العلامة دوركيم فى كتابه « أصول المنهج الاجتماعى » فلقد عالجه فى خمس صفحات فقط من القطع المتوسط من صفحة ١٠٢ إلى صفحة ١٠٦ ، فشئت أن أقدم البحث فى هذا الموضوع على ضوء ما وصلت إليه مجهودات علماء الاجتماع المحدثين ، فهو بحث جديد

وفقنا الله دائماً إلى ما فيه خير هذا العلم الناشىء ؟

دكتور عبد العزيز عزت

الدقى — جيزة ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧

تمهيـــــد

تطور المجتمعات المتأخرة هو جزء من تطور الحياة الاجتماعية بوجه عام وهذه الحياة الاجتماعية يراها علماء الاجتماع تتطور فى ثلاثة أشكال (١) الشكل الأول وهو الذى يهمنا فى هذا البحث ، ويسمى بالانجليزية Tribalism وهو ما نترجمه بتطور المجتمعات المتأخرة (٢) الشكل الثانى وهو مايسمى بالانجليزية Feudalism وهو ما نترجمه بتطور الحياة المدنية أو تطور المجتمعات التاريخية (٣) الشكل الثالث ويسمى بال Nationalism وهو مانترجمه بتطور الحياة القومية أو تطور المجتمعات الحديثة، فى الشكل الأول تطورت المجتمعات البشرية من البسيط إلى المركب بمعنى أن كل مجتمع سابق يكون أصغر حجما أى أقل فى عدد سكانه وأقل أيضاً فى مستوى حضارته من المجتمع الذى يلحقه ويليه ، وأن المجتمع الأول يمثل « الحبة » أو البذرة التى تخرج منها شجرة المجتمعات البشرية سواء فى الشكل الأول نفسه أو فى الشكل الثانى والثالث ، ولقد تتالت المجتمعات فى الشكل الأول بالوضع الآتى ـ أولا : ال Hord وهو ما نترجمه بالمعشر ثم ثانيا : ال Sib أو ال Clan وهو ما نعربه بالبطن ثم ثالثا ال Moiety وهو مانسميه بالآل رابعاً : ال Tribe وهو ما يترجم عادة بالقبيلة أو العشيرة ، وهى هذه المجتمعات الأربعة التى سندرسها فى هذا البحث .

وقبل أن نبتدئه يصح أن نشير إشارة عابرة إلى تطور المجتمعات فى كل من الشكلين الثانى والثالث ففى الشكل الثانى نجد (١) المدينة City كالحال فى مدن العهد اليونانى والرومانى مثل أثينا وأسبرته وروما (٢) الأمبراطوريات القديمة وهى استيلاء مدينة على مدن أخرى ويمثل هذا خاصة الأمبراطورية

الرومانية (٣) ثم نظام الأقطاع وهو يمثل مدينة متصلة بما حولها من الضياع والأراضى التى يمتلكها السادة الذين يعيشون فى المدن ، وترتكز كلها على فكرة الطبقات الاجتماعية . أما فى الشكل الثالث فنجد أولا : الشعوب التى ابتدأ ظهورها منذ القرن السادس عشر فى أوربا عندما قامت حركة النهضة وحركة الأصلاح وعندما ابتدأت تظهر القوميات فى أوربا وتنفصل الأمم عن الكنيسة ونفوذها مثل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وذلك تحت وحدة الجنس واللغة والأسر الحاكمة ثانياً : الأمبراطوريات الحديثة وهى استيلاء شعب على شعب أو شعوب أخرى لاستغلالها إقتصاديا وهذا يتمثل خاصة إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ثالثاً : الوحدات الدولية ، أو التكتل العالمى الذى تمثله جمعية الأمم بعد الحرب العالمية الأولى والتى كان مقرها مدينة جنيف بسويسرا ثم هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية والتى تتزعم حركتها الولايات المتحدة وانجلترا وغيرها من الحلفاء .

ولنبدأ الكلام بأقسام الشكل الأول وأولها الهرد Hord أى

المعشر

إن كلمة Hord بالانجليزية و Horde بالفرنسية تشتق من أصل تترى يعنى «مخيم» أو معسكر كما يذكر سمنر Sumner[1] فى كتابه «علم المجتمع» الجزء الأول From a Tartar Term meaning « Camp » فهى تدل أصلا على التنقل وعدم الاستقرار ، ونحن نترجمها بالمعشر والجمع معاشر ، لأن المعشر هو جمع من الناس يعيشون ويسيرون معاً عشار عشار أى عشرة أشخاص يبتغون الرزق عن طريق الصيد والقنص فى البر والبحر ، فالنسبة العددية وهى عشرة أشخاص

(١) أبو علم الاجتماع بالولايات المتحدة الأمريكية

هى التى دعتنا إلى أن نسمى الهورد بالمعشر ولكن قد يزيد العدد بقليل عن العشرة أحياناً .

لقد أخطأ بعض البحاث مثل Morgan فى كتابه Ancient Society عندما يعتبر الشكل الثانى وهو الـ Sib أو البطن أنه الشكل الأول لحياة الناس فى جماعة فهو رأى قديم لأن كتابه ظهر فى سنة ١٨٧١ ولأن الاجتماعين الحديثين وعلى رأسهم دوركيم رئيس المدرسة الفرنسية الاجتماعية فى كتابه « أصول المنهج الاجتماعى » أثبتوا أن البطن شكل يمثل بعض التعقيد فى تركيبه الاجتماعى ولهذا لا يمكن أن يعتبر الخلية الأولى أو الحبة الأولى التى انبعثت منها أشكال تطور المجتمعات البشرية ، واجتهد دوركيم بعد ذلك فى تحديد المجتمع الانسانى الأول أى الذى لا يوجد فيه تعقيد ما فهو أبسط شكل اجتماعى ولا أثر فيه لشكل اجتماعى سابق له ، ولكن بعد الاجتهاد وطول أعمال الفكر والاجتهاد قال إنه المعشر وعاد وخصص فقال إن المعشر وإن كان الشكل الأول للحياة الاجتماعية إلا أنه من الصعب أن نجده مستقلا نقياً عند الشعوب المتأخرة الموجودة فى زماننا هـــذا ، فأغلبها إن لم يكن كلها تعيش فى بطون وفى غير البطون من الأشكال المركبة ، ولهذا يصبح المعشر نوعا من الافتراض العلمى تستلزمه أصول المنهج فى البحث والتى تقول بالذهاب دائما من الشكل البسيط إلى الأشكال المركبة المعقدة ، أى من الشكل البدائى الأول إلى الأشكال الحضارية الراقية .

ولكن بعض تلاميذ دوركيم فى المدرسة الفرنسية وهو العلامة موس Mauss فى بحث نشره فى المجلة العلمية الشهيرة لهذه المدرسة وتسمى « السنة الاجتماعية » L'année Sociologique العدد التاسع سنة ١٩٠٦ عنوانه تغيرات الحيـــاة الاجتماعية عند الأسكيمو حسب الفصول « Essai sur les variations saisonnières des Sociétés Eskimos أمكنه أن يثبت أن المعشر أو المجتمع

الانسانى الأول يمكن مشاهدته فى بعض فصول السنة عند أقوام الأسكيمو الذين يعيشون فى الجهات الشمالية للكرة الأرضية وخاصة فى شمال أمريكا الشمالية فى ألسكا وأيضاً فى جرينلاند، فعادة يعيش الأسكيمو فى الشتاء بالشكل الثانى أى فى بطون وكل بطن منها يبلغ عدد أفراده نحو المائة ولكن هذه البطون تنحلل وتتفكك إلى عناصرها الأولى التى تتركب منها وهى المعاشر وهذا يحدث عادة فى فصل الصيف حيث يستقل كل رجل بزوجته وأولاده وينفردوا بأنفسهم للبحث عن القوت متنقلين من مكان إلى آخر بعد ذوبان الجليد ساعين بوجه خاص وراء اصطياد الأسماك للمأكل وعجل البحر لدهنه وجلده ، ووراء اصطياد الثعالب القطبية والدب الأبيض لاتخاذ فرائها ملابس تقيهم برودة الطقس وغير ذلك وهم فى هذا الفصل يقطنون فى الخيام التى تصنع من الجلد وخاصة جلد الوعل ، والكلمة العليا لرئيس المعشر فهو الذى يعين مكان وزمن الاقامة والرحيل وهو الذى يوزع عليهم نصيبهم فى المأكل والملبس وغير ذلك من مظاهر سلطة الفرد .

وإذا قلنا إن المعشر يتركب من الرجل وزوجته وأولاده فيجب ألا يتدرب إلى الذهن أنهم يدركون وحدة أسرية أو عائلية فيما بينهم ، كلا ، فإن ما يجمع بين هذا العدد الصغير من الناس ليست هى صلة القرابة وإنما هى صلة أخرى ليست لها الصفة الاجتماعية وإنما هى الصفة الحيوانية أى صلة ترتكز أصلا على إشباع الحاجات المادية الضرورية وخاصة المأكل وإشباع الغرائز الجسمية وأيضاً حاجتهم أن يحتمى بعضهم ببعض للدفاع عن النفس ضد المعتدى حيوان كان ذلك أم إنسان ، فنحن لا يمكن أن نتكلم عن حياة اجتماعية بالمعنى الصحيح فى هذا الشكل الأول للمجتمع الانسانى .

ولقد دلت الأبحاث الحديثة العهد بعد من تقدم ذكرهم أن حالة الهرد أو المعشر ليست بحالة استثنائية كما يقول موس Mauss تظهر فى بعض الفصول وخاصة فى فصل الصيف وإنما هى حاله عامة تسود عند بعض الأقوام الذين يمثلون أحط مستوى للمعيشة الإنسانية أى أنهم يمثلون الشكل الأول للمجتمع الإنسانى فهم أكثر الناس تأخرا — وأهم هـــذه الأبحاث نجدها عند :

(١) Lowie-the origin of the state (٢)وعند Hartley-Primitive society

وأهم هذه الأقوام هى أقوام الأقزام الذين يقطنون أواسط أفريقيا African pygmies-les négrilles-les pygmées وأقوام البوشمن Bushmen الذين يوجدون فى جنوب شرق أفريقيا وأقوام الفوجيان Fuegians فى جنوب أمريكا الجنوبية ويمكننا أن نضيف إليهم زنوج الفلبين والملايو والبافيستو Paviosto فى صحراء نفادا Névada فى أمريكا الشمالية والاندمانيز Andamanese فى خليج البنغال فى آسيا .

ويجب أن نعرف أن عدد أفراد المعشر بين هذه الأقوام الأخيرة أكثر منه فى المعاشر التى تظهر فى بعض فصول السنة عند الأسكيمو ، فالعدد هنا يبلغ نحو الأربعين أو الخمسين على الأكثر ما بين رجال ونساء وأطفال بأعمارهم المختلفة ، والقلة والكثرة هنا مترتبة على نوع البيئة التى يسكنونها فإذا كانت خيّرة كثر العدد كالحال عند الأندمانيز Andamanese وإذا أجدبت وهذا فى الغالب قل العدد لضرورة الانتشار والسعى وراء الرزق هنا وهناك كالحال عند البوشمن Bushmen .

ويمكننا بوجه عام تلخيص الصفات الأساسية للمعشر فى الأمور الآتية :

أولا : إن المعشر جمع من الناس يتنقلون ولا يستقرون فى مكان معين ،

وإن كان التنقل يحصل عادة فى مساحة معروفة محدودة والحياة تعتمد فيه على القطف أى الجمع والصيد فى البر والبحر ، وأن حجم المعشر يختلف فى الكثافة والتخلخل أى القلة بالنسبة لخصب البيئة أو جدبها وأن أفراده يسكنون فى الغالب الكهوف وجذوع الأشجار الكبيرة فليس لهم منازل ثابتة من صنعهم وإنما يلجأون إلى ماتجود به الطبيعة .

ثانيا . إن المعشر قد يكون أحيانا عائلة تستقل بنفسها كالحال عند الأسكيمو فى بعض الفصول ، وقد يكون مجموعا من العائلات القليلة العدد التى تسير معا ابتغاء الرزق ، وهذا يدل على أن الوجود الاجتماعى فى مبدأ أمره كان وجوداً عائلياً أى أن الأسرة هى البذرة أو الحبة الأولى التى خرجت منها سائر الأشكال الاجتماعية من معشر وبطون وآل وقبائل ومدن وشعوب وغير ذلك ، وبهذا يقول كثير من الاجتماعيين مثل . سمنر Sumner ، ورفرز Rivers ، وكللر Keller ، ولوى Luwie ، ومالينوفسكى Malinovski ، فالوحدة الاجتماعية فى المعشر هى الأسرة the family ولهذا ليس هناك تنظيم اجتماعى فى المعشر وإنما كل أسرة تهتم فيه بنفسها وتخضع لرجل قوى فيها ، فهم يسيرون كالقطيع كل بضعة أفراد يتبعون رجلا قويا وكلهم يبحثون عن الرزق ولكن يجب أن نعرف أن العائلة كوحدة قائمة بذاتها أمر مستحيل ولا يمكن أن توجد مستقلة بنفسها أبداً (١) ، فمثلا فى الصيف عند الأسكيمو تنتمى العائلات أصلا إلى البطن أى أنها جزء متفرع من بطن معين ، وفى المعشر ترتبط بالعائلات الأخرى التى تجاورها وتسير معها فى نفس المكان الذى يسعون فيه وراء الرزق ، ولهذا كان المعشر فى أصله وحدة اقتصادية لا وحدة سياسية .

---

(١) The individual family never stands alone (جولدنفيزر)

ثالثاً : كلما قل عدد الأفراد فى المعشر كلما قل التشاحن بين الأفراد ولكن الأخذ بالثأر وسفك الدماء منتشر فيما بينهم ، والزواج فيما بينهم ليس له أصول موضوعة فهم يتزاوجون فيما بينهم كما يتزاوج الحيـــوان ولهذا لا يفترض العفاف عند الزواج فلقد يتصل الرجال بالنساء لا عن انقطاع وإخلاص وإنما لمجرد إشباع الغريزة الجنسية عند الطرفين .

رابعا : ليس هناك حكومة أو نظام سياسى فى المعشر وإنما السيادة تكون لبضعة أشخاص أقوياء ، وقوتهم لا تأتيهم من حسبهم أى من مولدهم وإنما من قوتهم الجسمية ومهارتهم فى الصيد ومقدرتهم على حماية من معهم من الأفراد ، وحماية بقعة الأرض التى تادوها لابتغاء الرزق . ولصغر حجم المعشر وبساطة حياته لا يوجد إطلاقا أى أثر فيه لظاهرة تقسيم العمل التى هى أساس قيام التنظيم والسلطة فى المجتمع .

ولنتكلم عن بعض هذه الشعوب التى تعيش فى معاشر ونختار من بينها الأقزام فى أواسط أفريقيا والفوجيان Fuegian فى المناطق الباردة الجنوبية أى فى أمريكا الجنوبية .

زنوج أواسط أفريقيا

بيئتهم : يقطن هؤلاء الزنوج جهات الكنجو البلجيكية والفرنسية والكمرون وخاصة أوغندا فى غابة إيتورى Ituri حيث يصعب العيش فيها بسبب ارتفاع درجة الحرارة وكثرة سقوط الأمطار فى الجهات الاستوائية وكثافة النباتات والأشجار التى يبلغ محيط جذوعها أحيانا خمسة أقدام والتى ترتفع أحيانا إلى مائتى قدم وهذه الكثافة تجعل الانتقال فى الغابات صعباً ،

وتجعل الجو مشبع بالأبخـــرة وتساعد على انتشار الهوام الناقلة للأوبئة والأمراض .

صفاتهم : وهم قوم يسمون بالأقزام لقصر قامتهم Negrillos (بينما Negritos اسم لزنوج آسيا فى جزائر أندمان ، والملايو، وغينيا الجديدة) فارتفاع القامة يبلغ نحو ٤ أقدام وأربع بوصات فقط ولون بشرتهم بنى قاتم وسيقانهم رفيعة وأذرعهم طويلة وشعرهم أكرت خشن وكثيف على الرأس والصدر، والرأس كبير ومستدير ، والأنف أفطس ، والشفاه رفيعة والعليـا أطول من السفلى ، والعيون سوداء .

ملبسهم : هم لا يلبسون شيئا فى الغالب فهم أصلا عراة الأجسام لا يسترون إلا عوراتهم وخاصة النساء منهم ببعض أوراق الشجر أو جلود الحيوان وبالمثل يفعل الرجال وأحيانا يسيرون عراة بدون ستر عوراتهم .

مسكنهم : أما من ناحية المسكن فهم يسكنون فى أكواخ بدائية تصنع من فروع الشجر والأعشاب والأوراق وخاصة أوراق الموز وشكلها من الخارج يشبه البيضة وتقام فى مكان تقل فيه كثافة الأشجار والنباتات أو على الحدود الخارجية للغابة وعادة هن النساء اللاتى يصنعن هذه الأكواخ، وهى غير مستديمة وسريعة الإنشاء لأنهم لا يثبتون فى مكان واحد دائما وحياتهم كلها التنقل من مكان إلى مكان ولكن بالطبع فى حدود مساحة معينة من الأرض ، وإذا أقاموا فى مكان فلا يمكن أن تطول هذه الإقامة أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر وعادة يكون تغير المكان بسبب التشاؤم عندما يموت منهم بعض الأفراد أو بسبب الخوف من الأعداء حيوانات أو أقوام أخرى .

مأكلهم : من وجهة التغذية يعتمد هؤلاء الزنوج على الصيد والقطف

أو الجمع فهم لا يعرفون الزراعة ولا يعرفون تربية الحيوان ، ولهذا كان أغلب غذاؤهم من اللحوم والعسل الأبيض وقلوب الأشجار وأوراقها وثمارها أى الفواكه وخاصة الموز والثمار ذات القشر الصلب القابل للكسر Nuts، وأن من يُكثر منهم فى أكل اللحوم لقلة النباتات فى بعض الجهات مثل الكلمنجارو Kilimandjaro يلاحظ انتفاخ البطون عندهم وتشاهد هذه الظاهرة الجسمية أيضا عند الدوكو Dokko والأكا Akka والبابنجو Babongo فى تلك الجهة ، ومنهم من يأكل لحم الإنسان وهم الزنوج الذين يقطنون خاصة فى جهات بحر الغزال وهو فرع من فروع النيل الجنوبية الغربية وفى الكنغو أمثال البانوا Les Batua والتانجوى Les Tangui .

آلاتهم: من حيث الآلات ينتمون إلى العصر الحجرى وهذا واضح فى جهات الكاتانجا Katanga والكنغو Congo والجابون Gabon ولهذا يلجأون فى صيد الحيوان إلى طرق بدائية مثل الحفر فى الأرض ومثل الشراك المصنوعة من فروع الأشجار المفتولة وإلى استعمال السم أحيانا كثيرة وهم لا يعرفون الآنية المصنوعة من الفخار أو الأخشاب وإنما يستعملون أدوات من قشر الثمار والشجر ومن الأوراق ومن الجلود وهم يجدون صعوبة فى توليد النار ويصلون إليها عن طريق الاحتكاك وإشعالها بمواد خفيفة وجافة والنفخ فيها وهم يوقدونها فى الغالب لتسوية اللحم والموز ولكن أحيانا كثيرة يؤكل نيئاً ، ولكن الآن يوجد عندهم آلات أرقى من آلاتهم الطبيعية يشترونها بالمقايضة ممن جاورهم من الزنوج الطوال الأرقى منهم بعض الشىء ، فهم يشترون مثلا الأقواس والرمح المصنوع من الحديد والسكاكين والحراب وهذا نظير إعطائهم أو مبادلتهم بالعاج والسموم والحيوانات .

من الوجهة الاجتماعية: يعيشون فى معاشر يبلغ عدد المعشر نحو العشرين ويتكون من نحو خمس وحدات عائلية كما نجد هذا عند البابنجو Babongo وأيضا عند البونى Boni ، وقلة العدد هذه راجعة إلى فقر تلك الجهات فى المواد الغذائية وصعوبة الحصول عليها وعدم تناسقها لتغذية الجسم ومن جهة أخرى إلى صعوبة المواصلات وقلة وسائلها فى تلك الجهات وهم يعيشون فى الغالب تحت إمرة فرد معين له احترامه من وجهة السن ومن جهـــة أنه يمثل معرفة خاصة وتجارب ذاتية فى أمور السحر ومعرفة أمور الغيب والتنبوء بالمستقبل وهى معارف سرية تنتقل منه إلى ابنه الذى يخلفه من بعده أو إلى أخيه إذا لم يكن له خلف ، وإذا حدث أن أحد هذه المعاشر مات رئيسهـا وليس هناك من يخلفـه تنضم فى الغالب إلى غيرها ولهذا نجد معـاشر يكبر حجمهـا ويبلغ عددها إلى المائتين وهذه بالطبع حالات استثنائية كما نجدهـا عند الأقوام التى تسمى أومبوتى Cumbouti وأكوا Akuwa وساجى Sanjé بل لعل السبب فى هذا التجمع ليس هو عدم وجود الرئيس وإنما يرجع هذا إلى سبب آخر وهو معيشتهم فى مكان قريب من الزنوج الطوال الذين هم أرقى منهم والذين هم فى حاجة إليهم لتبادل منتجات الغابة بأشياء مصنوعة من الحـــديد وبعض المنتجات الزراعية المتأخره .

والمرأة فى هذه الجماعات لها نفس القيمة التى للرجل وتقوم مثله بأعمال مهمة كالاشتراك فى الصيد وهى تصنع الأكواخ وتهتم بمسألة المأكل والاعتناء بتربية الأولاد ، ونحن لا يمكن أن نجد نظاما ثابتا محدودا للزواج لتأخر الحياة عند هؤلاء الأقوام وبساطتها ولهذا يكون من داخل المعشر أو من الخارج دون قاعدة معينة ويرتكز الزواج على أن يقدم الرجل للمرأة عمله ويقصد بهذا مجهوده فى الصيد وخاصة صيد الفيلة وجني العسل الأبيض ، هذا فى الغالب

ولكن بعضهم مثل الآك Akk يطلب تقديم شبه مهر يتكون من مصنوعات حديدية وخاصة السهام وهي تزامله أي أن لها احترامها وإرادتها وقليلا ما نعثر على حالات لتعدد الزوجات عند هذه الأقوام وإن كانت الظاهرة توجد أحياناً عند الصيادين الأقوياء الماهرين منهم وعند من يسود عندهم منع الاقتراب من المرأة طول مدة الرضاع . وليس هنك شيوعية فيما يمتلك الزوج والزوجة فلكل منهما أدواته وآلاته الخاصة به ، ويندر الزنى فيما بينهم فكل منهم يلزم إمرأة معينة ـ أو أكثر فى حالات نادرة ـ وليس هناك مايستدل به على أن المرأة يمكنها أن ترأس معشراً معيناً فالسيادة والزعامة للرجال عادة .

من الوجهة العقلية والدينية : نجد أن من يمثلها هو رئيسهم وهو طبيبهم وقسيسهم وهم عادة قليلو الاهتمام بمسائل السحر وبمسائل الدين فعقليتهم من الضآلة بحيث لاتدرك هذه المعانى وإنما كل اهتمامهم ينصب على المعرفة العملية فى كيف ينجح الفرد منهم فى الصيد وكيف يشفى إذا مرض ، وهم لا يعرفون التوتمية Totémisme أو الوثنية التى ستعرفها عند الكلام عن البطون والآل ولكنهم يتفاءلون ببعض الحيوانات ويتبركون ببعض النباتات كالشمبانزى ونبات يسمى نكولا N'Kula عند أقوام الأكوا Akoa ، فهم مثلا يقيمون احتفالاتهم حول شجرة منه ويرمون بثمارها فى النار وهم يرقصون ويغنون وعندما يستقرون فى مكان معين يغرسون فروعا كبيرة من هذا النبات أمام أكواخهم ويسألونها أن تكون الأقامة آمنة خيرة ، والأشياء الممنوعة Tabous عندهم ليس سببها دينى وإنما عملى فى الغالب ، وللنار أهمية اعتقادية عندهم ولكن لايمكن أن نقول إنهم يعبدونها فأغلب قرابينهم تحرق فى النار فمثلا قبل الأقدام على صيد كبير معين يقيمون حفلة عمادها إشعال النار ورمى

أوراق وفروع من أشجار مقدسة فيها وأحيانا يرمون فيها بلحوم الجاموس الوحشى ، وعند الموت يحتفظون فى الغالب برؤس الموتى فى مكان معين أما الجسم فيلق فى النهر إذا كان بجوارهم نهر أو يدفن فى جذوع الأشجار الكبيرة وعادة تأكله الحيوانات المتوحشة،وأهم أمراضهم الحمى والروماتزم وأهم علاجهم الفصد والكى والحمية ، ويقوم بمهمة الطبيب رئيسهم وقلما يلجأون إلى السحر فى المعالجة فهم لا يعرفون الأحجبة ولا التعاويذ ولا الترقية ولا البخور وغير ذلك ، ومن الوجهة الفنية الجمالية : نجد عندهم الرقص ومنه أنواع تخرج عن حدود الأدب وأهم الآلات المستعملة فى هذا الباب الطبلة بوجه عام وأحيانا وهذا بشكل استثنائى نجد الصفارة التى تصنع من العاج المفرغ ونجد هذا بوجه خاص عند الأقوام التى تسمى بالبكى Bekü .

الفوجيـــــان

(Fuégiens بالفرنسية Fuegians بالانجليزية)

هم أقوام بحريون متأخرون يقطنون فى جنوب أمريكا الجنوبية بين مضيق ماجلان فى الشمال وكيب هورن فى الجنوب على أرض مثلثة الشكل تقريبا رأسها إلى الجنوب وقاعدتها إلى الشمال تتخللها المياه وسواحلها متقطعة وخاصة فى الجهة الغربيـــة حيث تكثر الجزر وهى تسمى بالانجليزية Fuegia وكانت تسمى بالاسبانية Tierra del Fuega أى أرض النار وهذا لكثرة النيران التى يوقدها هؤلاء الأقوام حتى فى قواربهم التى يسيرون بها بقرب الشواطىء ابتغاء الصيد فى البحر وهذا بسبب اشتداد البرد فى تلك الجهات وكثرة الأعاصير ومتوسط درجة الحـــرارة يبلغ نحو خمس درجات فوق الصفر وهذا ما يمنع نمو الحبوب عندهم وخاصة القمح ، والبيئة على الساحل صخرية وفى الداخل

توجد غابات كثيفه ونباتات متراكمة وهى تقل كلما ارتفع المكان ، وهى أشجار خشبية لاتفيد الأنسان كثيراً فى مأكله وإن كانت تفيدهم فى صنع قواربهم وأكواخهم وخاصة أكواخ الشتاء ، وكثافة الغابات تمنعهم من التوغل فى الداخل وتجعلهم يعيشون بقرب السواحل وأن يعتمدوا فى معيشتهم على البحر ولهذا كانوا قوما بحريين .

صفاتهم : وينقسم الفوجيان إلى ثلاثة أقوام الأوناس Onas فى الشرق واليهجانس Yahgans فى الغرب والألاكالوف Alakaluf فى الشمال الغربى والذى يهمنا منهم هم اليهجانس لأنهم أكثرهم تأخراً وحياتهم بدائية بالمعنى الصحيح ، ظل هؤلاء الناس فى عزلة عن العالم المتمدن مدة طويلة إلى أن حدثت الاستكشافات الكبرى أى استكشاف الأمريكتين فعرفوا عندما كانت الرحلة تدور حول رأس هورن ولكن عند ما اكتشف مضيق ماجلان فى الشمال فى سنة ١٥٢٠ قل الاهتمام بأمرهم لتحول الرحلة بعيداً عنهم وزاد عدم الاهتمام بهم أكثر عندما حفرت قنال باناما وبعدت الرحلات عن أمريكا الجنوبية بأجمعها وهم قوم يميلون إلى القصر لأن الرجال منهم تبلغ قامتهم نحو خمسة أقدام والنساء أقل من هذا بثلاث بوصات ، وجزعهم أى القسم الأعلى من أجسامهم ملسجم النمو ورقابهم سميكة وقصيرة وأكتافهم مستقيمة وأذرعتهم طويلة وعضلاتها قوية ولكن سيقانهم رفيعة وملتوية وربما كان هذا بسبب جلوسهم القرفصاء فى قواربهم كثيراً ، وشعورهم كثيفة وسوداء وطويلة وتقص على الجبهة فى خط مستقيم كى لا تعوق أبصارهم .

الملبس : فى الجو المحتمل يسيرون عرايا ويدهنون أجسامهم بشحم الحيوانات البحرية وخاصة شحم الحوت وهذا يسبب لهم بعض الدفء ويجعل الأمطار تنزلق على أبدانهم ، وقد وهبتهم الطبيعة لطول إقامتهم فى تلك الجهات

طبقة من الدهن فى أجسامهم تجعلهم يحتملون البرد ولكنه إذا اشتد حموا الأجزاء الحيوية الحساسة من أجسامهم وخاصة ظهورهم وبطونهم وأعضاءهم التناسلية بجلود بعض الحيوانات وخاصة مايسمى منها بالجيونكو Guanco وهو نوع من اللاما أى جمل أمريكا الجنوبية أو عجل البحر Seal أو بفرو بعض القطط البحرية التى تعيش على أكل السمك Loutre ، هذه الملابس لاتستعمل طويلا وإنما فى الأيام الشديدة البرودة فقط ويستعملها خاصة النساء بشكل أتم وأكمل أما الرجال فيقتصدون فى لبسها بقدر الأمكان لحماية ظهورهم من شدة الريح الباردة وهذا لصعوبة الحصول عليها .

المسكن : وهم يقطنون فى الصيف فى أكواخ تصنع من فروع الأشجار وتغطى بأوراقها و شورها وهى بسيطة التركيب ولاتستغرق زمنا فى إنشائها فهى تستغرق مثلا من ساعة إلى ست ساعات وشكلها دائرى من فوق وتفرش أرضها بالحشائش الجافة الناعمة ، أما فى الشتاء فتصنع من جزوع الأشجار القوية ويبلغ محيط الكوخ من ٤ إلى ٥ أمتار ويجعلونها متلاصقة حتى تحميهم من العواصف الثلجية ، ويجعلون شكلها كقمع السكر أى تضيق إلى أعلى وتغطى رؤوسها بجلد عجل البحر لتمنع دخول ماء الأمطار فيها ولتحفظ الحرارة فى داخلها .

المأكل: إنهم لا يعتمدون على الأرض ومنتجاتها فى المأكل، ولهذا لا يستغلون النباتات التى تصلح لأكل الإنسان التى توجد عندهم مثل الـ celery الكرفس والـ scurvy والفُطْر وإنما يأكلون نوعا يسمى fungi ينمو على جذوع الدّبْق الأشجار الميتة ولا يأكلون نوعه الذى ينمو على الأرض وهم أيضا لا يأكلون الحيوانات البرية لصعوبة اصطيادها ولهذا هم يعتمدون كل الاعتماد على البحر

فمأ كلهم وخاصة حيواناته التى يمكن اصطيادها بسهولة بعد حركات المد والجزر مثل القواقع والمحار والأسماك التى يصطادونها بواسطة القوارب ، ويهتمون كذلك بالطيور الساحلية والبحرية وخاصة ببيض هذه الطيور ويتسلقون الأشجار والصخور للعثور عليه ، وليس عندهم أوعية للطبخ ولهذا يسوون مأكولاتهم على النار مباشرة والتى يحصلون عليها بالاحتكاك وخاصة باحتكاك الأحجار وتلقيها فى الريش الجاف الناعم والتى ينفخ فيها لنقلها إلى أوراق الأشجار الجافة ثم إلى الأعشاب والأخشاب وهم فى الغالب يحتفظون بالنار ولامعة لمدد طويلة وهم إذا أرادوا غلى الماء أسقطوا فيه حجارة ساخنة . لعدم وجود آنية توضع على النار لأن آنيتها من الجلد .

الآلات : يستعملون القوس لصيد الـ guaraque أى جمل أمريكا الجنوبية وهو نوع من اللاما ولكنه غير منتشر الاستعمال . وعندهم السهام التى تصنع من العظم ومن الحجارة الرقيقة ، ويستعملون المقلاع ، ودبابيس وإبر مصنوعة من العظم ، ولكن لا توجد عندهم السنارة ولا الشباك ولا الحراب الكبيرة القوية وإنما عندهم مزارق طرفه مصنوع من العظم المدبب ، ولهم قوارب يبلغ طولها من ١٢ إلى ٢٤ قدم وعرضها نحو ٤ أقدام وعمقها ٣ اقدام وهى مدببة من الطرفين ويستخدمون فى صنعها الازميل المصنوع من الأصداف الحادة القوية المركبة فى يد من الحجر ، والسكين المصنوعة من الحجر المصقول ذو الطرف الحاد ، وعندهم سلال من الجلد المفتول ويستعملون فروعا من الغاب المثقوب للشرب ، وهم يوقدون النار كثيرا حتى فى قواربهم على مواقد من الصلصال .

من الناحية الاجتماعية : حياتهم حياة تنقل من مكان إلى آخر ، وعددهم

ضئيل وهم من الأجناس الآخذة فى الانقراض . والمعشر عندهم يتكون فى فى الغالب من عشرة أشخاص يمثلون عائلتين أو ثلاث ولكن أحيانا وخاصة فى الشتاء يتجمع كثير منهم فى بقعة معينة بعدد يبلغ من ٣٠ إلى ٤٠ نفساً يشتركون فى إقامة كوخ كبير يقيمون فيه لمدة معينة ثم يعودون إلى حالتهم الأولى فى التوزع بعدد محدود على الشواطىء — الزواج يرتكز على تقديم المجهود والعمل فى الصيد ، وقد يرتكز فى حالات نادرة على الخطف أو الاغتصاب ، وهذا إذا كان الرجل قويا مرهوبا وإلا وقع عليه العقاب ، وإذا كان الزوج شيخاً له احترامه فيما بينهم يقدم إلى من يرغب فيها هدية ، والزواج لا يتطلب موافقة الزوجة فقد تكون هذه أحيانا كثيرة صغيرة السن وتعدد الزوجات موجود ولكنه نادر ، والزنى موجود عندهم ولا يعاقب بشدة ، فالزانى أو الزانية توبخ فقط وأحيانا يلجأ إلى الصفع واللطم ، والطلاق يكثر إذا لم تلد المرأة ، وحق امتلاك الرجل للأشياء المادية أكبر من حق المرأة ، والأرملة يمكن أن تتزوج ثانية ولها السيادة على بناتها ولكنها لا يمكن أن تكون رئيسة للمعشر والزواج ليس له قاعدة ثابتة فهو قد يكون من داخل المعشر أو من خارجه وفى هذه الحالة تكون الهدايا المطلوبة كبيرة — الوحدة فى المعشر هنا ليست مكانية وليست دينية وإنما هى اقتصادية للبحث عن المأكل ، الرجل يهتم بالصيد فى البحر والبر ، والمرأة تهتم بحياكة الجلود وبجمع المحار الذى على الشاطىء والطبخ والأمور المنزلية ، وهم ليس لهم دين محدود ويجهلون التوتمية Totémisme وإنما يعتقدون فى الأرواح الخفية التى يتخيلون أنها تسكن البحر والصخور الشاهقة وفى أرواح مطببيهم وفى الأحلام وفى التمائم ، ودعواتهم وتوسلاتهم محدودة وتنحصر فى اتقاء أخطار البحر أى الحماية من الغرق ومن المرض ، والقرابين

التى يتقدمون بها لهذه الارواح هى تضحيه الكلاب والأسماك وأحيانا الأطفال برميهم وإلقائهم فى عرض البحر وأيضا القاء بعض المأكولات المعينة فى النار، ويعالجون أمراضهم بواسطة التدليك والغناء ويقوم بهذه المهمة بعض الأفراد الذين ينظر إليهم كأطباء أى لهم خبرة فى هذا الموضوع ومن يموت منهم يدفن وأحيانا يحرق وتلقى أدواته الخاصة فى البحر ، ولحياة التنقل أثر فى هذا أى أن ليس لهم مقابر معينة أو قرافه وليس عندهم من الوسائل أن يتحملوا نقل أدوات غيرهم معهم ، ومتوسط ولادة المرأة أربعة أطفال ولكن يموت منهم عدد كبير بسبب سوء التغذية ، وبسبب تقديمهم كقرابين للأرواح أو بسبب قتلهم لصعوبة العيش — ويصعب وجود رؤساء بين هذه الأقوام وإنما هناك مطببين وهم شيوخ عقلاء لهم تجارب معينة فى هذا الباب ولهم تأثير روحى على غيرهم . وأعيادهم ومواسمهم محدودة جداً ، وليس عندهم قصص أو أمثال أو حكم أو عادات وتقاليد ثابتة ، ومن الوجهة الفنية نجدهم يستعملون ثلاثة ألوان الأسود والأبيض العير ناصع والأحمر المصفر . ويستعملون الريش أيضاً فى التزين ، ويعرفون العقد وهو من الأصداف والمواد البحرية ، والأساور حول المعصم من جلد عجل البحر ، وأحيانا العقد يصنع من عروق الجيوانا كو guanaco أى جمل أمريكا الجنوبية فى شكل عُقَد متتالية .

الشكل الثانى والثالث أى البطن والآل

نجمع الكلام عن الشكل الثانى والثالث معاً لأن الشكل الثالث ماهو إلا الشكل الثانى ولكن فى حجم أكبر ، فالأصول الأساسية واحدة والصفات الرئيسية واحدة كذلك ، وليس هناك إلا فروق بسيطة بين الاثنين سنعرفها فيما يلى :

البطن يعرف بالانجليزية باسم Sib وأيضاً Clan وبالفرنسية Clan فقط وله إسم تاريخى هو Gens والجمع Gentes ويقصد بذلك البطون التى وجدت فى العهود القديمة التاريخية عند اليونان والرومان - بينما الآل يسمى بالانجليزية Moiety وأيضاً Phratry وبالفرنسية Phratrie فقط وله اسم تاريخى بالفرنسية هو Curie ويدل على نفس الشكل الاجتماعى القديم عند اليونان والرومان وخاصة هؤلاء الآخرين .

وقد اخترنا كلمة آل لأننا نجد فى قواميس اللغة أنه « دون القبيلة » وهو فعلا الشكل الاجتماعى الذى يمهد لظهور الشكل القبلى فهو سابق للقبيلة التى هى أكبر منه حجما .

وسمينا الـ Clan بالبطن لا بالعشيرة - كما يفعل البعض — لأن العشيرة كما نجد فى قواميس اللغة هى القبيلة وهى شكل أرقى وأكبر من البطون ، فاستعمال كلمة عشيرة للكلان خطأ . ووقع اختيارنا على البطن لأنه يعبر أحسن تعبير عن فهم الناس فى هذا الشكل لوجودهم الاجتماعى الخاص، فهم يتصورون أنفسهم أسرة واحدة تنحدر من سبط أب واحد هو إلههم أو ما يسمى باللغات الفرنجية بالـ Totem التوتم أو الوثن، الذى تارة يكون حيواناً كالثعبان والغراب، وقد يكون نباتاً ولكن فى الغالب يكون حيواناً ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الطبيعة كالسحاب والمطر ، فهم من بطن واحدة ، وقرابتهم متحدة الدرجة أى أنهم كلهم أبناء لهذا الوثن مهما كانت صلتهم بعضهم ببعض من ناحية صلة الرحم أى قرابة الدم ، ولهذا — وهذا مهم — كان هذا البطن ليس ببطن دموى وإنما هو بطن روحى يتمثل فى اشتراكهم فى نفس العادات والعرف والتقاليد الدينية الخاصة بهذا الوثن وهو الذى يخلق منهم كلهم شخصاً معنوياً واحداً بحيث

يصبح الوثن رمزاً للبطن ولقباً لجميع أفراده ، فهم كلهم مثلا أولاد الغراب أو أولاد الثعلب فهو اللقب الجمعي لكل منهم .

الآل بطن كبير ، فلقد يحدث أن بطناً معيناً يتضخم عدد أفراده بسبب كثرة التناسل مثلا أو أحياناً بسبب كثرة التبني أى قبول غرباء كأفراد فيه بعد إقامة بعض الطقوس الدينية ، وهذا يدل على أن القرابة فى البطون ليست دموية فى الأصل وإنما إجتماعية — أو بسبب الحرب واستيلاء بطن على بطن أخرى ، فى هذه الحالة أى حالة كثافة أفراده ينقسم البطن إلى بطون فرعية لها أوثانها التى قد تتشابه أحيانا من ناحية معينة مع الوثن الأصلى فاذا كان الوثن الأصلى هو الغراب كما نجد هذا عند أقوام التلنكيت Tlinkit فى أمريكا الشمالية تفرعت منه البومة والنسر والور مثلا وهى طيور وعند الأيركووا Iroquois من الدب Bear تفرعت بطون الذئب Wolf والدب الصغير Beaver وهى حيوانات مفترسة .

ومجموع هذه الفروع والبطن الأصلى هو ما يكون الآل Phratry أو Moiety فهم أهل لوثن واحد قد تفرع ، والآل شكل أوسع وحجمه أكبر من البطن فهو مجموع من البطون تعيش سوياً ولكن عوضاً من التنقل تثبت فى أرض معينة فى شكل بلدان صغيرة . بينما المعيشة فى البطن معيشة تنقل وعدم استقرار ، بحيث أن صلة البطن بالنسبة للآل كصلة العائلة بالنسبة للعشير ، ولما كان يصعب أن توجد العائلة بمفردها بدون معشر كذلك يصعب الآن أن يوجد البطن مستقلا ومنفرداً دون آل (١) .

---

(١) يمكن وجوده فى حالات قليلة عند زنوج أستراليا فى مقاطعة فكتوريا وخاصة فى الجنوب الغربى لهذه المقاطعة ويختلف كبر الآل من ثلاثة بطون فيه مثل عند الديندا Dienda والـ Iroquoian Nohawk فى شمال أمريكا الشمالية وإلى ١٢ عند الـ Winnebago وإلى خمسين عند الـ Haida والـ Tlinkit وتصل إلى مائة فى وسط وشرق أفريقيا .

ويمكننا بعد هذا التحديد أن نعرض للصفات العامة لكل من البطن والآل، ولكن يجب أن نعرف مقدماً أنه فيما قبل أبحاث جولدن فيزر Goldenweiser (Anthropology, 1937) اعتقد كثير من البحاث أن كلها لابد من أن تتحقق معاً فى هذين الشكلين الاجتماعيين ولكنه أثبت أن بعضها قد ينقص عند بعض الأقوام مثلا قد يكون هناك وثن لبعضها كالكريرا Kariera ولكن ليس له صفة القداسة وإنما له فقط فائدة سحرية بينما عند البوين Buin الوثن Totem يقدس كل التقديس، وبعضهم مثل الايروكوا Iroquois يعتبرونه رمزاً فقط لوحدتهم ولكن ليس هناك قرابة فيما بينهم وبينه وعلى العكس نجد عند الونباجو Winnebago يعتبرون الوثن أباً لهم وهناك قرابة فيما بينهم وبينه، وعند كثير من بطون الأسكيمو لا نجد التوتم إطلاقا وإنما يقدسون الأجداد والأبطال، بحيث لا يوجد التوتم إلا عند بعضهم فى الأسكا وتحت تأثير الهنود الحمر الذين يقطون فى جنوبهم أى فى الشمال الغربى لأمريكا الشمالية وغير ذلك من الاستثناءات التى لا تمنع مطلقاً أن هذه الصفات لها المسحة العمومية عند معظم الأقوام التى تنتمى إلى هذين الشكلين :

الصفة الأولى : تنحصر فى وجود توتم أو وثن Totem لكل بطن وأوثان متفرعة لكل آل، وكلمة توتم تشتق من أحدى كلمات لغة الأقوام المعروفين فى كندا بالالجونكين Algonquins وهى كلمة Ote أوتى تعنى الأسرة كما يفهمها هؤلاء الأقوام المتأخرة وحيث يتسع نطاقها أى البطن Clan ويقال بلغتهم بالنسبة للانتساب إلى الأسرة « مد أوتم » Mid otem بمعنى أسرتى وكيد أوتم Kid otem بمعنى أسرتك ومن هذا التعبير الأخير خرجت كلمة Totem بشىء من التحريف والتبديل، وعند بعض الأقوام الأخرى

مثل الكرى Cree من الهنود الحمر نجد كلمة أوتوتما Ototema التى تعنى القريب أو المنتمى الى الأسرة .

وأول من لاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية وأهتم بدراستها هم المبشرون الذين أرسلو إلى أمريكا الشمالية لنشر الدين المسيحى بين الهنود الحمر ، فنى سنة ١٧٢٤ كتب لافيتو Lafitau وهو من الآباء الجزويت كتابه «عادات الأقوام المتاخرة الأمريكية » Moeurs des Sauvages amériquains

يجتهد فى هذا الكتاب أن يعرف طبيعة هذه الظاهرة وخاصة عند أقوام الايروكوا Iroquois وحاول مقارنتها بما كان يعرفه من الأساطير ، فدراسته كانت بعيدة كل البعد عن الميدان العلمى ، ثم أتى بعده الأنجليزى جون لونج John long وكان أول من استعمل على وجه التقريب كلمة توتم حيث كتبها Totam فى الصفحة ٨٦ من كتابة ذو العنوان الطويل وهو

Voyages & travels of an Indian interpreter & trader describing the manners & customs of the north American Indians.
« سياحات ورحلات تاجر يفسر ويصف أحوال وعادات الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية » وظهر فى سنة ١٨٩١ .

وهذه الظاهرة تتلخص كما قدمنا فى ذلك الاعتقاد فى روح خفية تتمثل عادة فى بعض الحيوانات المستأنسة كالأرنب أو المتوحشة كالدب والذئب وهذا فى الغالب أو النباتات وهذا فى النادر أو بعض مظاهر الطبيعة ، وينظر إلى التوتم كأنه أله له احترامه وتقديسه وكأنه الجد الأكبر الذى ينحدر أفراد البطن من سبطه فله إذن الصفة الدينيـــة باعتباره المظهر المحسوس الخارجى La form extérieure أو الصورة الظاهرة لأله البطن وتلك الروح الخفية التى يؤمنون بها والتى تسمى بالمانا Mana وله كذلك الصفة الق .

أو الجمعية فالتوتم أو الوثن المعبود يعبر عن الروح الكلية للبطن نفسه باعتباره وحدة لها تماسكها وتضامنها الاجتماعى ولها قوتها أمام غيرها من البطون ذات الأوثان المخالفة ، فهو إذن رمز Symbole يميزها عن غيرها من البطون وهو يعتبر بمثابة العلم Le Drapeau بلغتنا الحديثة (١) أى هو الدلالة الظاهرة لها ، (كما تفعل بعض الهيئات فى المجتمعات الراقية مثلا فى الكشافه أو بعض فرق الطيران) .

وهو الذى يرعاهم ويحميهم من المخاطر وهو الذى يلهمهم بما فيه صالح أنفسهم وهو الذى يعوضهم خيراً إذا نزلت بهم المكاره .

وبسبب هتين الصفتين اللتين للوثن وجب على أفراد البطن أو البطون ألا يقتلوا هذا الوثن إذا كان كائنا حيا وهذا الاحترام المقدس لا ينصب على فرد من النوع وإنما على أفراد الجنس فكل استمتاع بكل فرد من جنس الوثن ممنوع ومحرم ومن لا يحترم هذا من أفراد البطن يعاقب عقاباً صارما، ولتأكيد احترامهم للوثن يقيمون من فرصة لأخرى حفلات يجتهدون فيها بتمثيل هذا الوثن وصفاته فى أنفسهم وهذا بتقليد أصواته وحركاته وسكناته بل وشكله أيضا . وهم يعتقدون أن الوثن يتمثل فيهم ماديا عن طريق الدم ولهذا هو فيهم بالوراثة وأحيانا تكون هذه الوراثة عن طريق الأب ولكن فى الغالب عن طريق الأم ، ولهذا كانت القرابة فى مسحتها العامة فى هذه البطون قرابة أمومية ، ومن هنا ندرك تعلق الفرد بمجتمعه وتداخله فيه ، ولهذا كانت هذه القرابة أقوى بكثير من قرابة الدم التى نعرفها فى مجتمعاتنا — كما يذكر

---

(١) انظر دوركم

Durkheim — Les formes élémentaires de la vie religieuse
P.P. 295. 299 308. 314. 315, 316

فريزر فى Frazer — Totemism and Exogamy Vol. 1 P. 53
« The Totem Bond is stonger Than the bond of blood or family in the modern sense » وهذا النظام الوثنى لا يختص بقارة معينة وإنما هو عام منتشر فى سائر القارات فنجده فى أمريكا الشمالية فى شمالها الغربى عند أقوام الهوبى Hopi والزونى Zuni والهايدا Haida والتلنكيت Tlinkit وأيضاً فى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى وفى سهول الوسط ، ونجده فى أمريكا الجنوبية وخاصة عند هنود الأمزون وفى أفريقيا نجده خاصة عند البانتو Bantu وهو منتشر عند غيرهم ، واستراليا هى القارة التى يعمها نظام الوثن فهو فيها أكثر انتشاراً من أى قارة أخرى ، وهذا أيضاً فى آسيا وخاصة فى جزر الهند الشرقية فى مالينيزيا Melanesia وبولونيزيا Polynesia .

وهناك بعض المفكرين يعتقدون أن الوثنية فى انتشارها ابتدأت من أصل واحد وجهة واحدة هى الشمال الشرقى لأفريقيا ثم امتدت غرباً وشرقاً وشمالا وجنوباً حتى عمت فى سائر القارات وهذا ما يقول به الأستاذ اليوت سميث Elliot Smith ، وهناك من يقول وهم المحدثين من البحاث بأن الوثنية Totemism من أصول متفرقة وهى عامة بحكم التشابه فى عقلية هذه الأقوام المتأخرة وبحكم الصفات المشتركة فيما بين الوثن وأتباعه من الوثنين بكونه يحميهم وكونه فى دمائهم وكونهم لا يأكلونه وكونه اسماً لهم أجمعين ، كل هذه صفات لمستوى معين من التصورات والمعتقدات هو مستوى العقلية المتأخرة بهذا يقول جولدنفيزر Goldenweiser ، بينما دوركيم يشابهه فى عدم الأخذ بالأصل الواحد للانتشار ويقول أيضاً بتعدد الأصول ولكنه يرجعها على عكسه إلى سبب مادى لاروحى هو حجم المجتمع البدائى أى إلى عدد أفراده فحيثما عاش الناس لمدة طويلة بعدد يقرب من Le volume, morphologie

المائة ظهرت نظم اجتماعية تلقائية لتنظيم العلاقات بين أفراد هذا الجمع منها التوتمية Totemism أو الوثنية بل هو أهم النظم الإجتماعية كلها فى هذه الجماعات لأنه هو الذى يصبغها كلها بصبغته ، بحيث تتركز القوة الجمعية فيه ، ولأنه هو يمثل هذه القوة ويعبد ويقدس، فهو روح الجماعة، Année Sociologique Vol. V 1901 Durkheim - le Totémisme وأعتقد أن رأى الأخيرين أصح وأحدث وأن كلا منهما يتمم الآخر .

الصفة الثانية : للبطن هى الزواج من الخارج أو ما يعرف عادة بالاجزوجامى Exogamie = زواج = Gamie + خارج = Exo ، فى هذه المجتمعات نجد أنه كقاعدة عامة يجب أن يختار الأفراد زوجاتهم أو أزواجهم من خارج البطن أو الآل الذى ينتمون إليه أى من بطن أو آل آخر له وثن مخالف . والبطون التى تنتمى إلى آل واحد لا يمكنها أن تتزوج بعضها من بعض وإنما عليها أن تبحث عن بطون تنتمى إلى وثن آخر فكل فرد إذن عليه أن يتزوج خارج البطن وخارج الآل الذى ينتمى إليه ، ويعتبر جولدنفيزز Goldenweiser أن الوحدة الاجتماعية التى يقوم عليها المنع هى الآل وليس البطن بحيث أن المنع فى هذا الأخير منع مشتق أو تابع لمنع الوحدة الاجتماعية الكبرى وهى الآل In all such instances the moiety is the real exogamous unit, while the exogamy of the clan may be designated as derivative.

فمثلا

آل ا		آل ب
ويحتوى على	يتزوجون	ويحتوى على بطون
بطون ا١ ا٢ ا٣	من	ب١ ب٢ ب٣

فالرجل من بطن ا١ لا يمكن أن يتزوج امرأة من بطن ا١ ولا من امرأة

من بطن ا$_{٢}$ و ا$_{٣}$ ولكنه يمكنه أن يتزوج من أى امرأة من آل ب — وأهم من يصور هذا ما نجده عند أقوام التلنكيت Tilinkit والهيدا Haida فى شمال غرب أمريكا الشمالية والديرى Dieri فى أستراليا .

ويذكر مورجان فى كتابه المجتمع القديم صفحة ١٠١ ، أن أقوام التلنكيت Tlinkits ينقسمون إلى قسمين أى إلى أهلين ويخضعون لنفس القواعد المتقدمة بالشكل الآتى :

الآل الأول	الآل الثانى
بطن الدب	بطن الضفدع
» النسر	» الأوز
» الخنزير البحرى (نوع من السمك)	» سبع البحر
» كلب البحر	» البومة
» النبات البحرى المسمى (يعوم أو فى القاع)	» حوت سليمان

ومن هذا يتضح أن القرابة تتبع فرعاً واحداً أى أنها قرابة منفردة Unilateral بحيث ينتسب الفرد فيها إما إلى فرع الأم وإما إلى فرع الأب فقط ولكن و الغالب إلى فرع الأم كما يؤكد هذا دوركيم وجولدنفيزر ، وهذا على عكس القرابة فى الأمم الراقية حيث تكون مزدوجة أى فيها تثلية Bilateral أى أن الفرد ينتمى فى آن واحد إلى أسرة الأم والأب فى آن واحد وله أقارب من الجهتين بينما النظام المتبع فى البطن والآل يحدد صلة الفرد بنصف أقاربه فقط وهذا ما يجعل الوحدة بين الأفراد فيهما قوية

متماسكة ، فاذا كانت القرابة أمومية كانت الرئاسة لامرأة فى البطن ويحيط بها أى يعيش معها أولادها ذكوراً وأناثاً ثم أولاد بناتها فقط ثم أولاد بنات بناتها - أما الذكور فيتزوجون من بطن آخر ويلحق أبناؤهم إلى أمهاتهم — والعكس صحيح إذا كانت القرابة أبوية فيكون الرئيس رجل تعيش معه امرأته أو نساؤه أحياناً ثم أولاده ذكوراً وإناثاً ثم أولاد أبنائه الذكور فقط ثم أولاد أولاده الذكور أما بناته فيقمن معه إلى أن يتزوجن وعند زواجهن تلحقن هن وأبنائهن بأسرة الزوج وتحمل فى هذه الحالة اسم بطن زوجهن وتتبعن شريعة وثن أزواجهن .

ولكن هل من صلة بين الزواج من الخارج والوثنية ؟ هناك من الاجتماعيين من أنكر هذه الصلة مثل فان جنب Van Gennep فى كتابه L'etat actuel du problème totémique فهو يرى أن كلا منهما نظام مستقل لا ارتباط بينهما، لا من جهة الأصل ولا من جهة التأثير ، فكل منهما يمكن أن يوجد مستقلا عن الآخر وأن وجودهما معاً فى آن واحد عند الشعوب المتأخرة ليس بصفة عامة ويعطى على وجه التحديد نسبة ٣٠٪ لقوة هذا الانتشار فيما بينها . فليس إذن فى نظره من مميزات النظام الوثنى وجود الزواج من الخارج كما أن ليس من مستلزمات الزواج من الخارج وجود الوثنية Totémisme ويذهب هذا المذهب أيضا سير جيمس فريزر Sir james Frazer فى كتابه Totemism & Exogamy بينما دوركيم يؤيد العكس فلقد أثبت فى مجلة السنة الاجتماعية ١٨٩٨ — ١٩٠٤ أن عرف الوثن السائد عند تلك الأقوام هو الذى يمنع كل المنع الزنى بين الأقارب ، لأن استعمال الرجال لنساء من نفس البطن ينظرون إليه نظرة الزنى وهذا بحكم أنهم ينظرون إلى بعضهم أنهم أبناء وثن واحد

وينحدرون من أصل واحد أيضا ، ويذهب مثل هـذا المذهب اندرو لانج Adnrew Lang فى كتابه سر التوتم أو الوثن Secret of the Totem ، ونحن نؤيد الأخيرين لأنه من الملاحظ أن النظام الوثنى يساعد كثيرا على قيام الزواج من الخارج بحيث أن هتين الظاهرتين فى علاقة مباشرة كل مع الأخرى فعندما يتدهور ويضعف النظام الوثنى يتدهور ويضعف هذا الزواج الخارجى .

ولكن ما السبب الذى جعل الناس فى هذه الاشكال البدائية يتزوجون من الخارج ؟

اختلف المفسرون كذلك هـذه المرة فمهم من يرى أن السبب يرجع إلى عقم النساء وقلتهن فى داخل البطون ويقول بهذا ماك ليتان Mac Lennan فى كتابه Studies in Ancient History 1886 ، وليؤيد رأيه هـذا يذهب إلى افتراض غريب وهو انتشار عادة وأد البنات بين هذه الأقوام المتأخرة ولكن آراؤه غير صحيحة لأن هذه العادة حقيقة موجودة عند بعضهم مثل البولونيزيين Polynesians والجيوناس فى باراجواى Guagnas du Paraguay والتودا Todas فى الهند ولكنها ليست لها العمومية المطلقة التى يفرضها ، ثم أن هذا الفرض يناقض نفسه لأنه فى حالة قلة البنات بسبب الوأد سيجعل كل بطن يحتفظ بما عنده من البنات ولا يزوجهن فى الخارج وبهذا تنقطع الصلة بين البطون وتذهب ريحها وهذا عكس ما يؤدى إليه فعلا الزواج من الخارج فهو يزيد من عددها فى البقاع الخصبة ويقوى من ترابطها ـ بينما يذهب Lewis Morgan فى كتابه « المجتمع القديم » Ancient Society ، و Frazer فى كتابه Totemism & Exogamy T. IV إلى أن السبب هو سبب حيوى Biological وهو الأثر السيء من وجهة الصحة وقلة النسل للزواج بين الأقارب ولكن هذا فرض يتطلب فهما عويصا للتقدم العلمى فى علوم الحياة وهو شيء يجهله

كل الجهل هؤلاء المتأخرون، بينما يرى Westermarck فى كتابه «أصل الزواج الأنسانى» The origine of human Mariage حيث يعزو منع الزواج بين الأقارب إلى كراهية فطرية ، وإعراض بالسليقة عن كل اتصال جنسى أو زواج لكل الأشخاص الذين تربى ونشأ بينهم الفرد ، وأنه يحدث فى نفسه بطبيعتها ميلا تلقائيا إلى الاتصال الجنسى بالغريب أوالغريبات ، فلكل غريب فى نظره لذة لا توجد لمن خالطهم الانسان منذ صباه وهذا فى نظره ما يدفع بالمتأخرين إلى الزواج من خارج بطونهم ، ولكن يتضح من أول وهلة أن وستر مارك يفكر بعقلية حديثة وهى عقلية القرن العشرين ويريد أن يلبسها لهؤلاء المتأخرين فالإنسان الحديث له من الحرية والسهولة أن يتزوج من محيط خارجى ولكن الرجل المتأخر مقيد بعوامل مختلفة دينية ومادية واجتماعية فهو يسلك هذا المسلك وهو مجبر تحت سلطات اجتماعية متنوعة وهو فى تحقيق هذا الزواج ليس رائده أو دافعه الغريزة الجنسية وإنما الغريزة الاجتماعية مصورة فى احترام العرف والتقاليد وعادات الوثنية السائدة . ثم أن المعاشرة الطويلة لم تكن يوما ما مانعاً من الزواج والدليل على ذلك أن هناك أقوام وخاصة عند قدماء المصريين كان الزواج يحدث أحيانا كثيرة بين الأشقاء والشقيقات ، وأنه قد يحدث الآن أحيانا كثيرة أن يتزوج أشخاص بسبب صداقتهم الوثيقة منذ الصغر .

ولعل السبب الحقيقى العلمى هو الذى يعطيه دوركيم فى الجزء الأول من مجلة السنة الاجتماعية حيث يرجع هذه الظاهرة إلى عرف الوثن La tradition totémique ، فعادة يعتقد المتأخرون أن الروح الخفية أو القوة الخارقة التى يمثلها جدهم الحيوان أو النبات تحل فى أجسام كل فرد منهم وخاصة

فى بعض أعضاء وأجزاء الجسم بالذات مثل الأظافر والشعر والأمعاء والدم وخاصة هذا الأخير، فهذه الأجزاء فى نظرهم لها صفة القداسة ولها معنى التحريم وهم ينظرون إلى الدم نظرة معينة كأنه العنصر الأساسى للحياة عامة ولحياة البطن خاصة ، فبعض نقط منه كافية لجعل المكان الذى يرتادونه مقدساً ، وهم يسقونه للشيوخ معتقدين أنه يكسبهم القوة والشباب ، ويسقونه للمرضى معتقدين أنه يجلب لهم الصحة ، وإذا ما اتفق بعض الأشخاص على فعل شىء ويريدون أن يؤكدوه ويجعلوه قاطعا نافذاً يشربون بعضا من الدم ليكون هذا الاتفاق مقدساً ، ويسكبون الدماء كذلك على الأرض كى يغزر نمو النبات ، ويعتقدون أن المرأة هى بوجه خاص هى التى تحمل بكثرة هذا العنصر المقدس ويجتهدون بقدر المستطاع ألا يلمسوا النساء وقت الحيض، بل أحيانا يحبسوهن فى مغارات أو أماكن مغلقة مظلمة حتى لا ينجسن ضوء النهار ، لأن دماءهن فاسدة فى هذه الفترة : فالمرأة فى نظر المتأخرين هى التى عن طريقها يستمر انتقال العنصر المقدس من السلف إلى الخلف . والدم وسيلة لتقوية وحدتهم وتماسكهم ولهذا ينسب الأطفال إلى أوثان أمهاتهم والقرابة فى الغالب قرابة أمومية وبهذا يصبح لدم المرأة قيمة دينية مهمة une valeur religiëuse plus haute ، حسب تعبير دوركيم ، ولما كانت نتيجة الزواج هى اتصال الزوج بالدم الذى تحمله المرأة تولد من هذا هلع الإنسان المتأخر من كل اتصال جنسى مع امرأة من نفس البطن الذى ينتمى لنفس الوثن لأنهما من دم واحد ، فالمرأة محرمة على أقربائها فى نفس البطن والآل وهى شىء مقدس لا يصح لمسه ومن هنا فى فى نظر دوركيم نشأت عادة الزواج من الخارج عند الجماعات المتأخرة .

الصفة الثالثة : هى سيادة بعض العادات التى يمكن أن نسمى بعضها موجبة

أى أنها مشروعة ويجب فعلها to do مثل عادة التبنى وعادة إقامة الحفلات فى بعض المناسبات . والبعض الآخر عادات سالبة أى غير مشروعة وهى التى تمنع فعل بعض التصرفات to do not أو ما تسمى عادة بالمحرمات Taboos مثل عدم لمس بعض الأشخاص أو الأشياء ، أو عدم السير فى طريق أو فى مكان معين ولنتكلم أولا عن العادات التى من النوع الأول أى الموجبة والتى يجب فعلها وأداؤها مثل عادة التبنى فعلى كل بطن مهمة اجتماعية هى أن تلحظ برعايتها كل طفل ليس له سَنَد اجتماعى وكل رجل ليس له حماية اجتماعية ، وفى هذه الحالة الأخيرة هناك فائدة متبادلة بين هذا الفرد الغريب وبين البطن الذى يريد الانتماء إليه فهو سيحظى بالأمان فى داخل البطن وهذا بدوره سيقوى بزيادة عدد الرجال فيه ، وهذه قوة لها أهميتها عند الشعوب المتأخرة ، يمكننا أن نلاحظها مثلا عند الهنود الحمر فى أمريكا ، فعندهم عادة تبنى أسرى الحرب ليعوضوا البطن بما فقده من الرجال فيها عن طريق القتل أو الأسر ، وهذا التبنى أو القبول فى داخل البطن كأعضاء فيه تحدث بواسطة طقوس ومراسم دينية متفق عليها عمادها الدم وينظر من بعدها إلى الغرباء كأنهم جزء لا يتجزء من البطن .

أما عن عادة إقامة الاحتفالات فنجد مثلا عند الزنوج الأستراليين الحفلات التى تسمى كوروبوريه ، وانتكيوما Intichiuma & Corroboree الكوروبوريه عبارة عن حفلة قد تتكرر لعدة أيام محدودة تقام فى المساء فى الليالى المقمرة وخاصة فى ليلة البدر التام ، حيث يوقدون ناراً كبيرة ويرقص حولها الرجال ، ويحيط بهم كنظارة النساء والأطفال والصبية يغنون لهم ويلوحون لهم بعصى فى أيديهم ، ويجب على الرجال قبل الرقص أن ينقشوا أجسامهم برسوم متنوعة مختلفة الألوان ، قد تشترك أحيانا ولمدد قصيرة النساء

فى الرقص ولكن هذا فى النادر حصوله ، والغرض من هذا الاحتفال هو نشر البهجة فى حياتهم الاجتماعية من جهة ومن جهة أخرى له غرض خفى يتعلق بتراثهم الدينى كارضاء أوثانهم لحمايتهم ولدفع البلاء عنهم . أما عن الانتكيوما Inticbiuma فهو احتفال يقام والغرض منه رجاء الأوثان أن تزيد بقوتها الخفية نسل الفصائل الحيوانية اللازمة لمأكلهم وزيادة الخصب والعشب بالنسبة للأرض التى يقطنونها ، ويحدث بعد هذا الاحتفال أن يسمحوا لبطون غريبة أن تأكل الحيوان الذى يعبدونه لأنه يتكاثر ، أمامهم فلا يمكن أن يشتركوا فى هذا إطلاقا ولكن قبل هذا الاحتفال هو محرم عليهم وعلى غيرهم ولا يسمحوا عما عندهم من فصيلته أن يأكله غيرهم ، ويجب أن نميز بين الأكل والقتل ، فإذا كان بعض الحيوانات المعبودة أصبحت خطرة على حياة أفراد البطون يصح أن يقتلوها ولكن لا يأكلوها ، وإذا أكلوها فهذا فى حالات نادرة جداً تمثل ضرورة قاسية كالقحط مثلا . (كأكل القطط ولحم الإنسان أيام الحروب فى الشعوب الراقية) .

أما عن المحرمات : أو العادات الممنوعة Toboos وهذه الكلمة بولونيزية تعادل كلمة Sacer عند الرومان أى مقدس أو محرم وتعنى أيضا ممنوع أو نجس أو غير نظيف أو خطر أو بمعنى أدق تمثل هذه الكلمة « الخوف المقدس » القداسة هنا ليست دينية أو أخلاقية أى من فوق أو من الداخل بالمعنى الحديث ، وإنما قداسة جمعية لأن كل الأفراد يأخذون بهذا وأيضا قداســـة زمنية لأن الأفراد فى أجيال سابقة أخذوا بهذا كذلك فالمسألة مسألة عادة اجتماعية ثابتة أى إلزام جمعى له ضغطه وجبره وتحتيمه على الأفراد فى البطون والآل أى أن الروح العامة فيها تمنعه .

وتتمثل الأشياء الممنوعة فى عقلية الأقوام المتأخرين كما تتمثل الأشياء أمامنا نحن المتحضرين كأنها محملة بالتيار الكهربائى بحيث تبدو هذه الأشياء كأنها تحمل قوة خفية هائلة تنتقل وتصيب من يلمسها، وأن قوتها عن طريق اللمس تتفرغ وتلمس جسم لامسها وإذا تفرغت ولبسته فتكون بالنسبة لهذا الجسم قوة هادمة، ويشمل المنع — بالنسبة للأشياء والحيوان والأشخاص — عدم اللمس وعدم القتل وعدم الأكل. وعدم الكلام إليها، فالشىء الممنوع يتمثل كأنه يشع من حوله قوة تضر من يقترب منها، وهذا المنع قد يكون لمدة معينة وقد يكون باستمرار، المنع المستمر يشمل الرؤساء الروحانيين والرؤساء المدنيين، والأموات وكل ماملك هؤلاء الأموات، فمثلا فى بولونيزيا إذا لمس رقيق أحد الرؤساء فإنه يقتل وأحيانا يصعق من نفسه تحت تأثير قوة الوهم والخوف، أما المنع المؤقت فيشمل عدم لمس المرأة أثناء الحيض وأثناء الرضاع وعدم الحرب والصيد فى البر والبحر فى أوقات معينة، ولكن يمكن منع الأثر السىء لمخالفة التحريم بتادية بعض الطقوس الدينية التى تكون شبه عازل بين المخالف أو اللامس وهذه القوة ومن لم يؤد هذه الطقوس يكون هو نفسه محرم أى يحرم إليه الكلام أو التعامل أو الاقتراب منه. ولكن ما الحكمة فى وجود هذه المحرمات عند هذه الأقوام؟ إن الغرض من وجودها ينحصر فى هذه الأمور:

أولا: قد يكون غرضها حماية الأشخاص الذين لهم احترامهم وقداستهم فى المجتمع كالرؤساء ورجال الدين من الأذية والضرر.

ثانياً: وقد يكون غرضها حماية الضعفاء كالنساء والأطفال والناس عامة من القوة السحرية التى لهؤلاء الرؤساء ورجال الدين.

ثالثاً : المحافظة على العمليات الأساسية للحياة ، كالولادة والتعميد والزواج والوظائف الجنسية ، حتى تبقى سليمة دون أن تفسدها عناصر غريبة .

رابعاً : تأمين الناس ضد سخط الآلهة وغضب الأرواح الخفية .

خامسا : تأكيد الحياه للأجنة والأطفال الصغيرة بمنعهم ومنع آبائهم من أكل بعض المأكولات التى يظن أنها تضر هذه الحياة .

سادساً إن فرض هذه المحرمات يقصد به أيضا احترام ملكية الأفراد لأدواتهم الخاصة ضد السرقة والسطو عليها .

وهم يؤمنون أن من يخالف هذ المحرمات يعاقب عقابا تلقائيا أى أن روح الوثن والأرواح الأخرى ستنزل حتما عليه ما يستحقه من العقاب ، ويعتقد من حوله أنه أساء إليهم وأنه لم يحترم العرف والتقاليد السائدة ولهذا يدعونه أن يكفر عنها بالطقوس الدينية ليتطهر أو ينزلون عليه العقاب وفى الغالب يكون الطرد أو الموت لأنهم كلهم سيقاطعونه لأنه أصبح نجسا ولا سبيل لأن يحي بينهم لأنه أصبح نفسه من المحرمات .

قد يبدو غريبا للإنسان المتحضر أن يكون سبب المنع القداسة والنجاسة أى الجمع بين صفتين متناقضتين ، ولكن يجب أن نعرف أن هذا الخلط فى فهم قيم الأشياء يرجع إلى طبيعته العقلية المتأخرة فهى عقلية يصعب أن تفهم مبدأ عــــدم التناقض فمن صفاتها كما يقول ليفى بريل Lévy Brühl الخلط بين المتناقضات وهذا راجع إلى اعتقاداتهم فى الأرواح والأشباح والخيالات التى تتناسب مع مستواهم الحضارى ولهذا يسمونهـا بأنها عقلية غير منطقية .

الصفة الرابعة : إن الملكية عند هذه الشعوب المتأخرة ملكية جمعيـة Propriété Collective ويعرفها سيرمين Sir Henry Maine فى كتابه

Ancient law — وقد لاحظها فى بعض جهات الهند بأنها الملكية التى يتعدد مستغلوها وأنها نظام متأخر وقديم وهى لا تمثل حق الفرد فى امتلاك شيء وإنما حق المجموع فى هذا الامتلاك ، قد يكون هذا المجموع بطناً من البطون أو أسرة أى مجموع من الأقارب ، ويجب أن نميز بين الملكية الجمعية هذه وبين الملكية الشيوعية المطلقة فهذه الأخيرة تكاد تكون مستحيلة الوجود عندهم لأن الملكية الفردية فى الواقع قائمة ولكن بشكل محدود فلكل فرد مثلا عند أقوام الكرياك Koriak واليوكاجهير Youkaghir فى الشمال الشرقى لآسيا أو إسكيمو آسيا الذين يقطنون بجوار مضيق بهرنج كما نجد ذلك أيضاً عند الأسكيمو فى شمال أمريكا الشمالية وفى جريندلاند أن الفرد له أن يقتنى ملابسه وآلاته الحربية ، وأدواته التى يستعملها فى الصيد وفى الزينة ، ولكن المسحة السائدة هى الملكية الجمعية وهى اشتراك الغير فيما يصح أن يقتنيه فرد معين فمثلا فى جرينلاند Groenland إذا اصطاد فرد حوتاً بحرياً كبيراً فهذا لا يعد ملكاً له وإنما يشاركه فى استغلاله من عاونه فى اصطياده إذا كان له مساعدون وأيضاً كل أفراد البطن والآل ، وعندهم أيضاً إذا امتلك أحدهم شبكة ولم يستعملها لمدة معينة فلأى فرد فى البطن حق طلبها لاستعمالها والحيوان الذى يصطاد بها لا يكون ملكاً لهذا الأخير وإنما ملكاً للجميع ، وعند الأسكيمو فى مضيق بهرنج Béring إذا اقترض شخص شيئاً من آخر وحدث أنه لم يرده إليه فهو لن يطالب برده ، لأن من العادات عندهم أنه إذا امتلك فرد شيئاً يزيد عن حاجته بدرجة أنه يمكنه إعارته فهذا يعنى أنه يملك شيئاً ليس له حاجة ماسة إليه وهو كمالى بالنسبة إليه ، فإذا أقرضه فليس له حق المطالبة به إطلاقاً وعليه أن ينتظر ربما رده المقترض من نفسه أى بإرادته وإن لم يرده فهو حق للمقترض .

ويرجع وجود هذه الظاهرة إلى أسباب منها السبب الدينى وهو اعتقادهم

بأنهم إخوان من صلب وثن واحد وأن عليهم أن يساعدوا بعضهم بعضا ومنها السبب الاقتصادي وهو احتياج كل منهم إلى الآخر فى الحصول على القوت، فلو أن فردا آثر نفسه وغلب أنانيته ولم يشرك معه غيره فى صيده وما امتلكه بمجهوده الخاص أو بمساعدة بعض الأعوان فيصح أن الجماعة تنبذه ولا تساعده فى الحصول على صيد آخر جديد، فالغيرية ولا أقول الشيوعية أساسها دينى واقتصادى وأيضا اجتماعى وأريد بذلك حكم العرف والعادات والتقاليد أى حكم الإرادة الكلية والزمنية التى يأخذون بها فى الحاضر والتى أخذ بها أسلافهم فى الماضى أو ما يسمى بالفرنسية Lamorale de la loisociale أى قوة أو سلطة السنن الاجتماعية .

الصفة الخامسة : إن المسئولية كذلك جمعية بمعنى أن المهم فى نظرهم ليست معاقبة المجرم وإنما معاقبة الجريمة، وذلك لسيادة قوة العرف والعادات والتقاليد عندهم بدرجة أن من يخرج عليها ويخالفها يعتبر خارجا على مجتمعه أى أنه حقر قيمة المجتمع، والعقاب غرضه ليس معاقبة المجرم أصلا وإنما رد الاعتبار إلى المجتمع أى ازال غضب الجماعة على من جرح شوكتها، فالمجرم فى داخل البطن ينظر إليه بنوع من التحقير الجمعى وبهذا يفقد قيمته الاجتماعية بين قومه أى يصبح منبوذا وينظر إليه كنجس وخاصة إذا لم يبتعد عن المحرمات وارتكبها. أما بالنسبة لخارج البطن والآل فالمسئولية لا تزال جمعية أيضا بمعنى أنه إذا ارتكب أحد أفرادها جرما بالنسبة لبطن آخر فالمسئول هنا ليس الفرد المجرم وإنما البطن كله بسائر أفراده، أى أن هناك تماسك بين المجرم وبين قومه ودائما نجد أن قومه يؤيدونه فى إجرامه وينتصرون له، ومن الجهة الأخرى المعتدى عليه يؤيده قومه كذلك ويطلبون العوض أو الأخذ بالثأر، والثأر هنا قد

لا يقع على المجرم ذاته وإنما على أى فرد كان من المعتدين أى أنه يعتبر رمزا جمعياً للتكفير عن الجريمة وهناك أقوام مثل الديرى Dieri فى استراليا تطلب قتل الشقيق الأكبر بالذات للمجرم لا المجرم نفسه ، وإذا لم يحقق الانتقام بالدم فى بعض الأفراد تقوم الحرب بين البطون ويضم المنتصر المغلوب إلى وثنه وأحيانا توقف الحرب ويصطلحان عن طريق الزواج والمصاهرة كما يحدث هذا عند أقوام أفيوجا Ifugaa فى أواسط آسيا ، وأحيانا يتفادون الحرب بقتل شخص ينظر إليه القوم أنه جموح ويورط بنى قومه فى مشاكل مع غيرهم ، وهذا يحدث عند أقوام تشكتشى Tchouktche فى شمال شرق آسيا عند مضيق بهرنج .

إن عادة الانتقام الجمعية هذه لاتسود فقط عند هؤلاء المتأخرين بل أيضا عند أقوام أرقى منهم، مثلا عند أهل القوقاز وأيضا عند الألبانيين حيث تشتد الروح الأسرية فلقد أحصى البارون Nopcsa حوالى سنة ١٩٢٥ عدد حالات الوفاة فى البانيا فوجد أن حوالى ٢٥ ٪ أو ٣٠ ٪ منها بسبب عادة الأخذ بالثأر التى تسمى بالفاندتا Vendetta .

الصفة السادسة والأخيرة : هى صفة سياسية وتتلخص فى سيادة الروح الديمقراطية عندهم فى الحكم ، ففى البطن والآل ينتخب الأعضاء من بينهم رئيساً أو رئيسة لهم . ويؤدى هذا الانتخاب فى شكل ديمقراطى : فمثلا عند الإيركوا Iroquois وهم قوم يقطنون فى شرق أمريكا الشمالية بجوار البحيرات الكبرى كل بطن يسمح لرجاله وأيضا — وهذا مهم — لنسائه بانتخاب الرئيس المدنى the civil head وللرجال والنساء أيضاحق سحب هذه الرياسة لأى سبب قوى من الأسباب ، فالرئاسة عندهم هى شبه امتحان لسياسة الرئيس وعمله الصالح الجمعى أى لصالح سائر الأفراد فى البطن .

ومهمة هذا الرئيس تنحصر فى السهر على أن يؤدى كل فرد فى داخل البطن واجباته على أكمل وجه ويشرف على تنظيم الحياة العامة للبطن فيحدد متى تقام الأعياد والمواسم ويعين أنواع الغناء والرقص والزى فى مثل هذه المناسبات وهو الذى يعمد الأطفال عند ولادتهم وهو الذى يقبل الأفراد الأجانب فى داخلية البطن أى هو الذى يقر التبنى بالنسبة للغرباء، وهو الذي يسهر على منع أكل المعبود إذا كان حيوانا أو نباتا، ولكن هذا لا يمنع من أن عند بعض الأقوام فى استراليا يمكن أن يؤكل هذا المعبود فى بعض المناسبات وبشروط دينية خاصة مثلا بعد الأنتكيومات Intichiuma وفى هذه الحالة يسهر الرئيس على الإكثار من نسل هذا الحيوان أو النبات حتى يفى بأغراض الاستهلاك الجمعى، ويشرف كذلك على تقديس تلك الروح الخفية التى تسمى مانا mana والتى يتوهمونها تحل فى الوثن أو المعبود فهو رمز خارجى لها، وإقامة الطقوس لتكريمها ابتغاء مرضاتها وغير ذلك من الأمور العامة التى تتعلق بالحياة الجمعية فيما بينهم .

وفى أزمات الحرب يحصل انتخاب الرؤساء والقادة الذين يديرونها ويقومون بها ويكونون مع الرؤساء المدنيين شبه مجلس يساهم فيه كل بطن برئيسه المدنى الخاص، وبهذا يمكن للبطون المتقاربة من أن توحد إدارة شئونها حتى تنقشع هذه الأزمة، والمهم الذى يجب أن نلاحظه هو الشكل الديمقراطى الذى به يتكون هذا المجلس عند هؤلاء الأقوام وخاصة الهنود الحمر منهم، وأغلب هذا المجلس من الشيوخ الذين لهم تجربة كافية ومعرفة تامة بعرف الحياة وعاداتها وتقاليدها . وحكومة الشيوخ أو كبار السن تعرف بالإنجليزية باسم Gerontrocracy (جيرونتروكراسى) ، ولكن هذه الروح الديمقراطية فى

الحكم قد لا تسوى أحيانا بين الرجال والنساء عند غير الأوروكوا Iroquois من الأقوام. فمثلا عند زنوج استراليا نجد تقريباً نفس النظام مع هذا الفارق وهو عدم مساهمة النساء والشبان فى انتخاب الرؤساء، وإنما الذى يقوم بالانتخاب هم الرجل والشيوخ فقط.

وبعد انتخاب الرئيس ينتخبون له مساعدين فى الحكم يجتمعون فى شبه جمعية عمومية une assembleé génerale. وفى الغالب الرئيس المنتخب يجب أن يتصف بالصفات الآتية : الفصاحة ومقدرة التعبير والتأثير، والمهارة الحربية، والشجاعة والإقدام، والمعرفة الكافية بمسألة المداواة والطب، وإذا كان الرئيس قويا وعرف كيف يؤثر على من حوله من رجاله كانت رئاسته تنتقل فى الغالب إلى أولاده ونجد هذا خاصة فى شرق استراليا عند الأقوام للتى تسمى بالديرى Dieri، ولكن هذه الديمقراطية تضعف وتضيق حدودها عند الأرنتا Arunta والورامنجا Warramunga وهم من زنوج أواسط استراليا فالرئاسة عندهم وراثية ويساعد الرئيس مجلس ذو عدد محدود من الشيوخ Oligarques يبلغ عددهم خمسة فى الغالب وقد يزدادوا إلى ثمانية أو إلى عشرة أحيانا قليلة.

ومهمة المجلس عامة أو بمعنى آخر الشيوخ ورئيسهم تنحصر فى الأمور الآتية : معاقبة مثيرى الشغب ومحاسبتهم على طغيانهم وتأكيد السلام والحياة المستقرة بين أعضاء البطون فى الداخل والخارج، ومعاقبة من لا يحترم عرف الزواج من الخارج أى من يرتكب جريمة الزنى لأن لمس المرأة فى داخل البطن ينظر اليه هذه النظرة أى Inceste، ويتدارسون مسألة قبول الغرباء فى داخلية البطون أى مسألة التبنى وقبول أعضاء جدد فيها وينضمون إلى أفرادها

ومسأله توزيع الخيام فيما بينهم ومسألة تحديد الجهة التي يجب أن يستغلها بعض البطون دون الأخرى ومسألة توزيع أسلاب الصيد والقنص فيما بينهم بالعدل ومسألة المشاطرة والمساهمة فى الجنازات وطقوسها ، ومسألة تحدى البطون الأخرى وهو ما يعرف بالبوتلاتش Potlatch وتقديم الهدايا لها فى مناسبات معينة ومسألة رد هذه الهدايا فيما بعد فى مناسبات متشابهة وما يجب أن يتخذ فى حالة عدم الرد بالمثل كالهجوم على البطون المقصرة فى ذلك والاستيلاء عليها وضمها تحت شارة الوثن والاستيلاء على كل ماتملك وغير ذلك من الشئون الجمعية التى تتعلق بحياة هؤلاء الأقوام العامة .

ويجب أن نعرف أن هذا المجلس قد يتزعمه أحياناً فرد قوى فيكون زعيما للشيوخ من أعضائه وتكون له السلطة عليهم وعلى بطنه الخاص وعلى سائر البطون الأخرى ويسمى بالانجليزية The Leader of the Elders أى « رئيس الشيوخ » .

هذه الروح الديمقراطية هى التى تسود فى الغالب عند الشعوب المتأخرة عامة فى سائر القارات ولكن هذا لا يمنع من وجود جماعات متأخرة تخرج على هذه القاعدة العامة مثل الناتشز Natchez فى جنوب أمريكا الشمالية ويمكننا أن نذكر أيضاً الهواى Hawaï والتاهيتى Tahiti من أقوام بولونيزيا فى المحيط الهادى، وأيضاً أغلب شعوب أفريقيا الزنجية ، فالسيادة عادة تكون لفرد له الحكم المطلق Un autocrate absolu (Un roi) أى ملك له على تابعيه حق الموت والحياة فهم يخضعون له ويطيعونه طاعة عميـــاء ، ويساعده فى تنفيذ سلطته أقاربه أو غيرهم ، ويختارهم هو بمحض إرادته ويمكننا أن نذكر من بين هؤلاء الزنوج فى أفريقيا الزولو Zoulou والتنجا Thonga فى جنوب شرق أفريقيا

فمثلا عند التونجا Thonga نجد أنهم مقسمون إلى إمارات مستقلة توحد فيما بينها اللغة والعادات وكل إمارة عبارة عن مملكة صغيرة يحكمها ملك هو الابن الأكبر لأول امرأة تزوجها أبوه عند توليته السلطة ، فهى ليست أول امرأة تزوجها إطلاقا ، أعنى يصح أن الملك السابق قد تزوج قبلها عدة نساء وإنما الملكة هى المرأة الأولى بعد تولى العرش ، وتحيط بهذا الملك هالة من القداسة ويجب ألا يعرض لإسمه إلا فى حالات القسم أو فى حالات الدعاء له بالخير ، ويتصورون أن له قوة خارقة سحرية تعمل على حمايتهم ولهذا كلهم فى خدمته بدون مقابل ويجمع بين يديه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية فهو وأقاربه كل شىء فى مملكته الصغيرة ، ولكن كثيراً ما يقوم النزاع بينه وبين أفراد عائلته وخاصة بين أشقائه لأن كلا منهم يطمع فى الملك ويطمع أن يحفظه لابنه من بعده ولهذا يجتهد كل ملك فى التخلص ممن ينافسه من أقاربه بقدر الأمكان وهذا ما يدعو إلى عدم الاستقرار واستمرار الشحناء عند هذه الأقوام وهذا كله سببه قيام السلطة على ارادة الفرد أى سيادة الروح الاستبدادية فيما بينهم .

القبيـــلة

القبيلة هى شكل اجتماعى أكبر من الأشكال السابقة ولعل الأسباب التى تدعو إلى كبر حجم المجتمعات الأنسانية فى تطورها هى فى الغالب ولا على وجه الحصر ، ازدياد الكثافة إما عن طريق كثرة التناسل أو كثرة التبنى وإما بسبب الحروب بمعنى استيلاء بعض الأقوام على البعض الآخر وادخالهم جميعاً فى حظيرتهم وتحت لوائهم ، وإما لسهولة الحصول على القوت فى بعض البيئات الخصبة الخيرة ، فعادة وفرة المواد الغذائية تساعد على الأكثار من النسل ، وأخيراً اتحاد بعض الجموع البشرية بعضها مع بعض لصالح مشترك وخاصة لمقاومة عدو مشترك له خطره عليهم جميعاً .

والقبيلة كشكل أكبر تتكون فى عناصرها الجزئية من الأشكال السابقة ولكنها لا تبقى فى داخليتها ظاهرة ومنفصلة وإنما تندمج هذه الأشكال بحيث تصبح القبيلة كلا متماسكا وجسما له وحدته وله تكاتف أعضائه فهى مع تركبها من المعاشر والبطون والأهل هى شىء واحد فى نهاية الأمر يشعر بوحدته وتضامنه وينمحى فيها كل أثر للوثنية، وتعتمد فى توحدها لا على تراث الوثن الخرافى وإنما على الدم وصلة الرحم فأساسها – حسب تعبير ابن خلدون — هو العصبية، وأفرادها كلهم عصبة واحدة أى أبناء لجد واحد ولكن هذا الجد ليس بخرافى أو رمزى أى حيوان أو نبات أو جماد وإنما هو واقعى أى شخص له وجوده التاريخى، وأن ذرية هذا الجد هى التى تسيطر على القبيلة وهى التى لها نفوذها وكلمتها على سائر أفرادها، فالقرابة فيها دموية من ناحية الأب أى قرابة أبوية، والزواج يحدث فى داخل القبيلة وليس من خارجها كما رأينا فى الأشكال السابقة وهذا ما يسمى بالـ Endogamie ولهذا ينظرون إلى بعضهم كأنهم أخوان، وإخاؤهم فى الواقع متين وتشتد فيما بينهم روح المودة والمساواة فى داخل القبيلة الواحدة، نعم قد يحدث أحياناً قليلة جداً أن يتزوج بعض الأفراد من الخارج أى من قبائل أخرى ولكن هذه حالات استثنائية نجدها عند الرؤساء والرؤساء الأقوياء جداً الذين يبغون تكوين ملك وسيادة على سائر القبائل وتوحيد الكلمة فيما بينها حتى يأمن جانبها ومهاجمتها له كما يفعل كثير من ملوك العرب وسادتهم فى العهد القديم والحديث على السواء، وفى الغالب ينحصر الزواج فى إمرأة واحدة لقلة الموارد ولكن عند الأغنياء منهم والموسرين نجد الزواج بأكثر من امرأة أى يظهر تعدد الزوجات Polygamie .

هناك من البحاث من يميل إلى جعل الأصل فى نشأة القبيلة كبر الحجم فى اتجاه واحد أى فى الاعتماد على دم واحد بمعنى أن جمعا واحدا أخذ يتناسل بكثرة وكبر حجمه The Natural increase & fission of a single genetic group ولكن وإن كان هذا صحيحا إلا أنه يجب ألا ننسى أهمية التبنى فى القبيلة فلقد تضيف إلى أفرادها أعضاء غرباء تقبل اندماجهم تحت رايتها ، وهؤلاء الأفراد قد يكونون أحيانا معاشروبطون بحالها ، وفى الغالب يحدث هذا إذا نزل سوء بإحدى القبائل المجاورة فى المرعى وضعف حالها وتريد أن تحتمى بغيرها من الأقوياء ضد عدو ترهبه وتخشاه ، ولكن بمرور الزمن ينصهر هؤلاء الغرباء فى القبيلة التى قبلتهم عن طريق المصاهرة والزواج ويصبحون فى النهاية من نفس الدم السائد فى تلك الوحدة الاجتماعية . ومما يساعد على قوة الوحدة فى القبيلة أنهم يتكلمون لغة واحدة ولا يقبل التبنى إذا اختلفت اللغة ، وأنهم يتحركون ويتنقلون للرعى فى أرض معينة . نعم إن الأرض مشاعة فيما بينهم ولا يملكها إنسان منهم بالذات وإنما كل فرد له حق أن يرعى البهائم فيها فهناك جهات محدودة تملكها القبائل فى كلها وقطعان البهائم ملكا لكل أفراد القبيلة أى أن أساس الملكية عندهم جمعى وكذلك عيون الماء والآبار للسقى ولكن هذا لا يمنع هذا من أن هناك بعض مظاهر الملكية الفردية عندهم فلكل فرد له أن يمتلك ما يساعده على اشباع ضرورياته ، فلكل منهم أدواته الخاصة وخيمته وأغطيته وملابسه وحرابه ، هذا فى حالة التنقل والبداوة ولكنهم أحيانا يقيمون فى قرى Villages إذا ماقل الكلأ وضعف العشب ، ويستعينون بجانب منتجات الحيوان بشىء من الزراعة الغير متقدمة بحيث تكون الزراعة فى المرتبة الثانية بجانب الرعى ، ولهذا تميز القبائل حسب الحيوانات السائدة عندهم والتى هى محور حياتهم الاقتصادية فهناك أقوام الحصان فى التركستان وهناك أقوام

الإبل فى بلاد العرب، وهناك أقوام البقر عند زنوج أفريقيا وأقوام الوعل فى شمال سيبريا فى آسيا . ويضيفون إلى الرعى والزراعة البدائية شيئا من التجارة المحدودة مع الأقوام التى تجاورهم وتتحقق هذه المبادلة عن طريق الـ troc أى المقايضة وهى استبدال سلعة بسلعة أخرى وهى طريقة صعبة فلقد يعترضها بعض العقبات مثلا تعذر تقدير قيم السلع بالنسبة لبعضها لأن كلا منها يأتى من بلد مخالف ذو قيم معينة للأشياء ، ومنها صعوبة إيجاد المادة المرغوب فيها مباشرة فلقد يحدث أن الأجنبى يريد أن يبيع منسوجات مقابل سن الفيل والمحتاج إلى منسوجات عنده قمح مثلا فهو مضطر أن يبيع القمح بالعاج أولا ثم يشترى بعد ذلك المنسوجات ، ومنها صعوبة التوفيق بين السلع المعدة للمبادلة مثلا شخص يريد أن يشترى سيف وهو يملك بقرة يصعب أحيانا أن يجد هذا وإذا وجده فالبقرة قيمتها أكبر من السيف ولهذا صاحب السيف مضطر أن يضيف سلع أخرى ويتحتم أن يحتاج إليها صاحب البقرة .

من الوجهة الدينية هناك من يأخذ بالأديان الوحدانية كما نجد الحال فى بلاد العرب وفى بلاد التركستان حيث ينتشر الإسلام ، ولكن فى جهات التندورة فى شمال سيبريا يسود عبادة الأرواح وتقديس بعض مظاهر الطبيعة وهو ما يسمى بالـ Shamanism ، ولكن البعض منهم فى الغرب تحول عن ذلك تحت تأثير المبشرين واعتنق المسيحية مثل أقوام الابس Lapps ، ومنهم من يقدس الرؤساء والأجداد والأبطال الذين كان لهم دور حافل فى تاريخ القبيلة كما نجد هذا عند بعض زنوج أفريقا وخاصة عند الداهومى Dahomey

والمسئولية عندهم جمعية وهذه تظهر فى ظاهرة الانتقام الفندتا Vandetta فالمعتدى مسئول وقبيلته يجب أن تكفر عن جرمه بقتل شخص فى مرتبة المقتول أو فدائه حسب مرتبته الاجتماعية بمقدار لا يستهان به من الماشية

السائده عندهم أى الإبل أو الحصان أو البقر ، ومن يمتنع تشن عليه الحرب ، وعلى أفراد القبيلة كلهم الاشتراك فيها بدون استثناء لأن هـذا شيء متعلق بكرامتهم وشرفهم ، فالشرف هو أهم الفضائل فى نظر أفراد القبيلة ، كذلك المجرم فى داخل القبيلة ينظر إليه كمعتدى على شرف القبيلة الممثل فى عرفها وعاداتها وتقاليدها وعقابه يكون صارما بالطرد أو الضرب أو الرجم أو القتل وهذا ليس انتقاما من المجرم فى شخصه وإنما انتقاما للمجتمع ورد اعتباره إليه ووضع العظة لمن تحدثه نفسه فى المستقبل أن يعتدى على المجتمع وسننه الاجتماعية.

فالعقاب لا ينظر إلى الماضى وإنما إلى الأمام والمستقبل أى أنه عقاب للإصلاح والمنع ولا ينصب على الانتقام والتنكيل . وكل أعضاء القبيلة متساوون أمام العرف والعادات والتقاليد ، فهذه العناصر الاجتماعية التى تمثل السلطة فى المجتمع القبلى أو دستوره هى القوانين الغير مكتوبة التى تفصل فيما بينهم من علاقات ومشاحنات ، فالمساواة مبدأ عام فى القبيلة ولهذا يخاطبون رؤساءهم كأنهم إخوان لهم . ولكن هذا لا يمنع أن هذه المساواة لا تطبق بالنسبة لبعض الطبقات فى القبيلة وخاصة طبقة العبيد ، وهذا نجده خصوصاً فى بلاد العرب ، فالبدوى أوالعربى ينظر إلى نفسه نظرة كلها الكبرياء واحترام الذات ولا يكلف نفسه إلا بالأعمال المشرفة كالرعى والحرب وهاتان وظيفتان تتعلق كل منهما بشرف القبيلة فكلما زادت القوة المادية من الإبل كلما زاد مركزها الاقتصادى وكلما قوى أعضاؤها فى النضال كلما امتد نفوذها السياسى ولهذا كانت الحقوق والمساواة للبدو والأعراب ، ولكن هناك العبيد الذين أتوا بهم من جنوب شرق أفريقا من أزمان بعيدة وتوالدوا عندهم ليس لهم نفس الحقوق والمساواة فليس لهم حق الزواج من بدوية عربيه وليس لهم حق

الملكية الخاصة إلا بأمر أسيادهم . وهم يعملون فى الغالب كخدم وحراس ، وهناك طائفة أخرى ولكنها عربية ينظر إليها بنوع من التحقير وهى التى تعمل فى الزراعة البدائية وهم أحسن حال من الأرقاء ولكنهم يمثلون الاسترقاق الزراعى أى أنهم أرقاء محررين لهم الأعمال اليدوية التى ينظرون إليها كأنها تزرى بصاحبها .

ولكل قبيلة شيخ يمثل وحدتها السياسية . وكل أفرادها ينظرن إليه كأنه والدهم وأنه يمثل أجدادهم القدماء ومهمته السهر على مصالحهم من حيث حمايتهم ومن حيث إكرام ضيوفهم ، ومن حيث توثيق العلاقات مع القبائل الأخرى لتكون عونا أكيداً فى حالة قيام حرب فيكونوا يداً واحدة ضد العدو المشترك ، وفى الغالب إذا مات الشيخ يحل فى مكانه ابنه الأكبر أو ابن آخر إذا كان الأكبر غير رشيد ، وأحيانا إذا تعذر وجود هذا من بين خلفه انتخب أفراد القبيلة لهم شيخاً تتحقق فيه صفات الرشد من حكمة وشجاعة وكرم ، وخاصة هذه الصفة الأخيرة لأن على رئيس القبيلة إيواء وإطعام فقرائها ولذلك له حق التصرف فى ممتلكات القبيلة لصالحها العام وإذا امتلك شخصياً شيئاً من الثروة يجب ألا تبقى لنفسه ولمحيطه الخاص من أقربائه وإنما لسائر أفراد القبيلة وخاصة للبؤساء منهم ، وللضيوف وللهدايا التى تقدم لهم ولشراء العبيد والأسلحة والذخيرة ، ولشراء ما يسهل المواصلات والانتقال من جهة إلى جهة ، ولهذا ينظر إلى الشيخ كأنه راعيهم لاسيدهم وزعيمهم الذى يهتم بأمورهم أكثر منهم ولهذا هم يطيعونه ويخضعون له لا عن خشية القوة ، فالبدوى لا يؤمر ولا يسام ولا تهدر مروءته ولا يفعل شيئا تحت ضغط وخوف وإنما عن محبة وأخوة وإخلاص ، وعادة رؤساء القبائل يعيشون كغيرهم

بين التنقل والاستقرار أحيانا فى قرى . ولكن الآن بعد احتكاكهم بالمدنية الأوروبية وخاصة فى بلاد العرب يقيم الرؤساء فى مدن محاطين بخدمهم وحشمهم ويستعملون كثيراً من مظاهر الحضارة الأوربية كالسيارات ، وأدوات المأكل وأدوات الصيد كالبنادق ، وآلات الحرب كالمدافع والطائرات ، ويستخدمون أيضا الراديو ، والملابس المصنوعة بالآلات لا باليد كسابق عهدهم من الصوف الخشن .

قد تجتمع القبائل أحيانا بعضها مع بعض لمدة معينة قد تطول وقد تقصر ويسمى اتحادها بالإنجليزية Confederacy وبالفرنسية La nation Diffuse ، أى التحالف بين القبائل أو عصبة القبائل ، هذه العصبة تمثل مرحلة تتوحد فيها القبائل ويكبر الحجم الاجتماعى ، قد يكون هذا التوحد لسبب سياسى أو لسبب حربى ، وقد ينتهى أحيانا بأن يكون مستديماً — وهذا نادر — ويشبه فى هذه الحالة عصبة الأمم أو هيئة الأمم المتحدة عند الشعوب الراقية . ونجد هذه الظاهرة فى السودان الفرنسى وفى جهات غينا وكانت توجد فى التاريخ عند السلت أو الكلت celtes فيما قبل الفتح الرومانى وعند اليونان من قبل ذلك أى قبل ظهور ونشأة المدن .

ففى السودان نجدها عند الأقوام المعروفين باسم أوهى Les Ewhé فهم يتكونون من قبائل متعددة منها التوجو Togo والداهومى Dahomey وأيضا عند جيرانهم الماندانج Mandingues والهابى Habé ، فعند هذه الأقوام نجد نوعا من التوحد يشعرهم بقوتهم ويؤسسون ملكا واسعا باستيلائهم على غيرهم من الزنوج ويفرضون عليهم سيادتهم، والرئاسة على هذه القبائل تتركز فى واحد هو الرئيس الأكبر أو الملك يساعده مجلس من شيوخ القبائل

ورؤسائها ، وعناصر الوحدة والتماسك تتركز فى قوة الرئيس وفى وحدة اللغة ووحدة الدم ووحدة البيئة ، وفى الغالب سلطة الرئيس مطلقة بحيث تكون كلمة الشيوخ استشارية . والقوة مركزة فى يديه ويخشاه الجميع ويخضعون له خضوعا كاملا ، وهذه السلطة المطلقة يستمدها من حسبه ونسبه باعتباره ينزل من سبط الجد الأول لهذه الأقوام المجتمعة فهو يمثل السلف بما له من احترام تاريخى وما له من أثر فى النفوس عامة وما له من قوة سحرية فى مخيلاتهم ، فهو رمز لهم وهم فى احترامهم وخضوعهم له يحترمون أنفسهم ويحترمون تراثهم وماضيهم .

ومسحة الحياة الاجتماعية العامة هى أنها حياة مدنية أى أنهم يعيشون فى قرى Villages ، وحول القرى يملكون المزارع التى تمتلىء بهم فى أيام الزرع والحصاد ، وفى هذه القرى يوزعون أنفسهم بشكل جمعى أى فى شكل بطون أو عائلات منفصلة القرابة تسكن فى حى معين منها ، وعادة تحاط هذه القرى بحائط يحميها أى بسور له باب كبير ، وهناك ، أبواب أصغر وكلها محروسة بحيث يعرف من يدخلها ومن يخرج منها وحيث تجمع الضريبة التى تجبي من التجار الذين يتعاملون معهم .

والمهم الذى يجب أن نعرفه هو ظهور جيش منظم من مختلف القبائل للدفاع عنها جميعاً ويضاف إلية جيش آخر من الأرقاء التابعين الذين استولت عليهم العصبة بالقوة ، والغريب أن بعض فرق هذه الجيوش من النساء كما نجد هذا عند الداهومى Dahomey فى غرب أفريقيا ويذكر بعض المؤلفين أن عددهن يبلغ نحو ٢٥٠٠ امرأة ، (وهذا ما يشابه الجيش الذى يطلب تأليفه لهيئة الأمم المتحدة أو الجيش الذى اقترحه الرئيس تارديو Tardieu لعصبة

الأمم بعد الحرب العالمية الأولى) ، وقد يبلغ عدد الجيش عند بعض هذه الأقوام مثل الويو Oyo نحو مائة الف محارب أغلبهم من المشاة، ولكن يدعمهم فريق من الخيالة وكل الرؤساء المحاربون لا يسيرون على أقدامهم وإنما من الخيالة أى يركبون الدواب ، وكانوا يستعملون قديما الأقواس والرماح ولكنهم بعد اتصالهم بالأوربيين يستعملون الأسلحة النارية ، والغرض من الحرب عندهم هو الاستيلاء على غيرهم من الأقوام وجعلهم أرقاء يبيعونهم أو يستخدمونهم فى زراعة الأرض أو فى الحروب أو يؤجرونهم لمختلف الأعمال، وخطتهم فيها حصار الأقوام الضعيفة الصغيرة الحجم بالليل ويهجمون عليهم من كل النواحى عند الفجر ، وكل من يبقى حياً بعد هذا الهجوم يكون مصيره الرق ويستولون أيضاً على الماشية وعلى الأمتعه وأحياناً تحرق قراهم أو تبقى وتضاف وتلحق بممتلكات الأقوياء الفاتحين ، فالرق مشرع فى غرب أفريقيا وخاصة قبل استيلاء الأوربيين على تلك الجهات ، والرقيق يساء معاملته أحياناً مثلا عند الداهومى Dahomey وقد يعاملون معاملة طيبة لأنهم يمثلون بضاعة رابحة عند اليوروبا Yoruba فيعطون بعض الأراضى لزراعتها لصالحهم الخاص بجانب أراضى أسيادهم التى عليهم أيضاً زراعتها ومباشرتها .

مراجع هذا البحث

1. DURKHEIM — Les règles de la méthode sociologique.
   — Les formes élémentaires de la vie religieuse.
   — L'année sociologique T. I. + V.
2. FRAZER — Totemism and Exogamy.
3. GATTI — Great Mother Forest.
4. GOLDENWEISER — Anthropology.
5. HARTLEY — Primitive Society.
6. HENRY MAINE — Ancient Law.
7. LAFITAU — Mœurs des sauvages américains.
8. LANG — Secret of the Totem.
9. Mgr. LE ROY. — Les Pygmées.
10. LEVY - BRUHL — La mentalité primitive.
11. LOWIE — Primitive Society.
    — The Origin of the State.
12. MACIVER — The Modern State.
13. MacLENAN — Studies in Ancient History.
14. MALINOWISKI — Culture.
15. MARETT & PENNIMAN — Spencer's Last Journey.
16. MAUSS — L'année sociologique, T. IX.
17. MORET & DAVY — Des clans aux empires.
18. MORGAN — Ancient Society.
19. RIVERS — Social Organisation.
20. SCHEBESTA — Among Congo Pygmies.
21. SUMMER — The Science of Society. Vol. I.
22. THOMAS — Source Book of Social Origins.
23. VAN GENNEP — L'état actuel du problème totémmique.
24. MESTERMARCK — The Origin of Human Mariage.

فهـــــــرس

صفحة


Bibliotheca Alexandrina
04402800